

سلسلة النقد الأدبي التطبيقي
« ١٠ »

محمّد علي أبو حمدة
في النقد الأدبي من جامعة أكسفورد بالمملكة المتّحدة
عضو هيئة تدريس بالجامعة الأردنية بعمّان

في التّذوّق الجمالي لقصيدة
أبي تمّام الطائي
في فتح عمّوريّة

« دراسة نقديّة ابداعيّة »

دار الجيل
بيروت

مكتبة المحتسب
عمّان


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التذوق الجمالي

سلسلة النقد الأدبي التطبيقي
« ١٠ »

محمد علي أبو حمدة
M. LITT.
في النقد الادبي من جامعة اكسفورد بالمملكة المتحدة
عضو هيئة تدريس بالجامعة الاردنية بعمان

في التذوق الجمالي لقصيدة أبي تمام الطائي في فتح عمورية

« دراسة نقدية ابداعية »

دار الجيل
بيروت

مكتبة المحتسب
عمان

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد :

فهذه هي الاستجابة العاشرة في سلسلة النقد الأدبي التطبيقي . وهي استجابة لدواعي التذوق «المستمر» لروائع النصوص الأدبية في لغتنا العربية التي شرّفها الله تعالى لتكون لغة القرآن الكريم ،ومن ثمّ لتكون لغة السماء والأرض في الدنيا والآخرة — ولو كره الكافرون ، ولو كره المشركون ، ولو كره الفاسقون ، ولو كره الاستعماريون ، ولو كره أنصاف المثقفين من «متميعة» المحسوبين على دنيا العرب .

ولأنّ التذوق الجمالي للنصوص الأدبية ذاتي في طبيعته « ودرجة حرارة » الاستجابة فيه ، فإن هذا التذوق يكون في الأفق الأعلى حين يُعْبَرُ (بصيغة المجهول) إلى لغةٍ تصحُّ أن تكون حواراً وتعليلاً . وعند ذلك يكون المتذوق قد أعذر إلى الله ، وإلى الناس ، ويكون قد حطّ عن كاهله وزراً طالما أنقض الظهر والكاهل – كمثل ما يَخْبُرُه المتعاملون مع اللطائف والشفافيات في النصوص الأدبية .

والتذوق الجمالي لقصيدة أبي تمام الطائي في فتح عَمُّوريّةَ كان قد بدأ في أيام مُبَكِّراتٍ ، وما زال يكبر ، وتتسع دائرته ، وتقوى حُججه . وقد كنت دائم التسويف والمراوغة حتى وَجَدْتُ نفسيَ وجهاً لوجه مع طلابي في الجامعة الأردنية في مساق دراسي اسمه « الرُّوميات » . وعند ذاك لم يكن بُدٌّ من تخليص الموضوع ، ومن عبور القصيدة العُبورَ الجماليّ الذي أُحبُّه وأرتضيه . فإنْ وجد فيها القارىء الكريم إضافة وملامح تُدْنيه من جمال النص ، فيها ونعمت ؛ وإنْ أعياه ذلك فلعله يقترح الأصفى والأنقى . وفي ذلك المكسب للغتنا العربية المشرّقة ، وفي ذلك الحياة للنصوص الرائعة في دنيا العربية .

وقد اعتمدتُ في عبور القصيدة لُغةً شرح الخطيب التبريزي لديوان أبي تمام تحقيق : محمد عبده عزام (دار المعارف بمصر : ١٩٦٤ م) . كما أفدت من النقد الأدبي الذي أثاره حول القصيدة أبو بكر الصولي في « أخبار أبي تمام »

تحقيق : خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهنــدي (المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت (بدون تاريخ))
وأبو القاسم الآمدي في كتاب «الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري» .
تحقيق السيد أحمد صقر (دار المعارف بمصر : ١٩٦١ م - ١٩٦٥ م) .

في التذوق الجمالي
لقصيدة أبي تمام الطائي في فتح عمورية

قال أبو تمام يمدح المعتصمَ بالله أبا إسحقَ محمدَ بنَ هارونَ الرّشيد (ويذكر حريق عمّوريّة وفتحها).

١ — السيّْفُ أصْدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ
في حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللّعِبِ

٢ — بِيضُ الصَّفائِحِ لا سُوْدُ الصَّحَائِفِ في
مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشّكِّ والرِّيَبِ

٣ — وَالعِلْمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامِعَةً
بَيْنَ الخَمِيسَينِ لا في السّبْعَةِ الشُّهُبِ

٤ — أيْنَ الرّوَايَةُ أمْ[1] أيْنَ النُّجومُ ومَا
صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيها ومِنْ كَذِبِ

٥ — تَخَرُّصاً وَأحَادِيثاً مُلَفَّقَةً
لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إذَا عُدَّتْ وَلا غَرَبِ

---

(١) م، د: بل.

٦ ـ عَجَائِباً[١] زعَمُوا الأيّام مُجْفِلَةً[٢]
عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأصْفَارِ أوْ رجَبِ

٧ ـ وخَوَّفُوا النّاسَ مِنْ دَهْيَاء مُظْلِمَةٍ[٣]
إذا بَدا الكَوْكَبُ الغَرْبِيُّ[٤] ذُو الذَّنَبِ

٨ ـ وصيّرُوا الأبْرُجَ العُلْيَا مُرَتَّبَةً[٥]
مَا كانَ مُنْقَلِباً أوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ

٩ ـ يَقْضُونَ بِالأمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ
ما دَارَ في فَلَكٍ مِنْهَا وَفي قُطُبِ

١٠ ـ لَوْ بَيّنَتْ قَطُّ أمْراً قَبْلَ مَوْقِعِهِ
لَمْ تُخْفِ[٦] مَا حَلَّ بِالأوْثَانِ والصُّلُبِ

---

(١) س : « غرائب » ورواية الاصل بهامشها هـ ب ، هـ ش : «عجائب» .
(٢) في س بين السطور رواية أخرى هي « مكشفة » .
(٣) س : « دهياء داهية » وبهامشها رواية الاصل .
(٤) في ظ روية « الدرى » منسوبة لأبي العلاء .
(٥) هـ س : « مدبرة » ـ وفي ظ رواها الخارزنجي « مرتبة » بفتح التاء ، وقال : رتبوها فقالوا اذا قابل نجم كذا نجم كذا في برج كذا وقع امس حادث .
(٦) م ، س : « لم يخف » .

١١ ـ فَتْحَ الفُتُوحِ تَعَالى (١) أنْ يُحِيطَ بِهِ
نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

١٢ ـ فَتْحٌ تَفَتَّحُ أبْوابُ السَّمَاءِ لَـهُ
وتَبْرُزُ الأرْضُ في أثْـوابِهَا (٢) القُشُبِ

١٣ ـ يَـا يَوْمَ وقْعَةِ عَمّورِيّةَ انْصَرفَتْ
مِنْكَ (٣) المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ

١٤ ـ أبْقَيْتَ جَدَّ بَني الإسْلامِ في صعَدِ
والمُشْرِكِينَ ودارَ الشِّرْكِ (٤) في صبَبِ

١٥ ـ أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رجَوْا أنْ تُفْتَدى جَعَلُوا
فِـداءَهَـا (٥) كُلَّ أُمٍّ مِنْهُمُ (٦) وأبِ

١٦ ـ وبَرْزَةُ الوَجْهِ قَدْ أعْيَتْ رِيَاضَتُهَا
كِسْرَى وَصَدَّتْ صُدُوداً عَنْ أبِي كَرِبِ

(١) م ، ل ، د « المعلى » وهي ايضا في هـ س ، هـ ب ، هـ ظ ، وقال ابن المستوفي : وموضع « تعالى » حال ، وانا اكره رواية « تعالى » وما بعدها لأن مثله يقع في الثناء على الله عز وجل .
(٢) ب ، ظ ، هـ س : « في أبرادهـا » ، وجـاء في ظ : ويروى : « في أثوابها » .
(٣) م ، ل : « عنك » .
(٤) س : « وجد الشرك » ـ هـ ظ : « ودار الكفر » .
(٥) هـ ب : ويروى « فدى لها » .
(٦) ل ، س ، د ، هـ ب : « كل أم برة » وفي هـ س رواية الاصل .

١٧ ـ بَكْرٌ فَمَا افْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ
ولا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النُّوَبِ (١)

١٨ ـ مِنْ عَهْدِ إِسْكَنْدَرٍ أَوْ قَبْلَ (٢) ذلكَ قَدْ
شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالي (٣) وَهْيَ لَمْ تَشِبِ

١٩ ـ حَتَّى إِذَا مَخَّضَ اللهُ السِّنِينَ لَهَا
مَخْضَ البَخِيلَةِ كَانَتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ

٢٠ ـ أَتَتْهُمُ الكُرْبَةُ السَّوْدَاءُ سَادِرَةً (٤)
مِنْهَا وَكَانَ اسْمُهَا فَرَّاجَةَ الكُرَبِ

٢١ ـ جَرَى لَهَا الفَأْلُ بَرْحاً يَوْمَ أَنْقِرَةٍ
إِذْ غُودِرَتْ وَحْشَةَ السَاحَاتِ وَالرُّحَبِ

٢٢ ـ لَمَّا رَأَتْ أُخْتَهَا بِالأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ
كَانَ الخَرَابُ لَهَا أَعْدَى مِنَ الجَرَبِ

---

(١) جاء ترتيب هذا البيت في س بعد البيت التالي له .
(٢) د ، هـ س : « أو قبل ذاك فقد » .
(٣) ظ : « قرون الليالي » .
(٤) في ظ : ويروى « كاربة منها » ، وفسرها بقوله اي دانية ، ويقال كرب اي دنا .

٢٣ — كَمْ بَيْنَ حِيطَانِها مِنْ فارِسٍ بَطَلٍ
قَانِي الذَّوَائِبِ مِنْ آنَى[1] دَمٍ سَرِبِ

٢٤ — بِسُنَّةِ السَّيْفِ وَالحِنَّاءُ[2] مِنْ دَمِهِ
لا سُنَّةِ الدِّينِ وَالإِسْلامِ مُخْتَضِبِ

٢٥ — لَقَدْ تَرَكْتَ أميرَ المُؤْمِنِينَ بِهَا
لِلنَّارِ يَوْماً ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالخَشَبِ

٢٦ — غَادَرْتَ فِيهَا[3] بَهِيمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضُحىً
يَشُلُّهُ[4] وَسْطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ

٢٧ — حَتَّى كَأَنَّ جَلابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ
عَنْ لَوْنِهَا وكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ

٢٨ — ضَوْءٌ[5] مِنَ النَّارِ والظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ
وظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ في ضُحىً شَحِبِ

---

(١) س ، د : « من قانى » ، ورواية الاصل بهامش س .
(٢) م ، د ، هـ ، ل : « والخطى » .
(٣) س ، م : « غادرت فيهم » — ورواية الاصل في س بين السطور .
(٤) في أصل م « يشبثه » وشرحه يدل على أنه رواها « يشله » .
(٥) قال الصولي في كتابه الاخبار (ص ١١١) : كذا قال أبو مالك والرواية « صبح » .

٢٩ ـ فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذا وقَدْ أفَلَتْ
والشَّمْسُ واجِبَــةٌ مِنْ ذا ولَمْ تَجِبِ

٣٠ ـ تَصَرَّحَ(١) الدَّهْرُ تَصْرِيحَ الغَمَامِ لَهَا
عَنْ يَــوْمِ هَيْجَــاءَ مِنْهَا طَاهِرٍ جُنُبِ

٣١ ـ لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ فيهِ(٢) يَوْمَ ذَاكَ على
بَــانٍ بِأهْلٍ ولَمْ تَغْرُبْ عَــلى عَــزَبِ

٣٢ ـ مَا رَبْعُ مَيَّةَ مَعْمُوراً(٣) يُطِيفُ بِــهِ
غَيْــلانُ أبْهَى رُبىً مِنْ رَبْعِهَا الخَرِبِ

٣٣ ـ وَلا الخُدُودُ وَقَدْ(٤) أُدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ
أشْهَى إلى نَــاظِرٍ مِنْ خَدِّهَا التَّرِبِ

٣٤ ـ سَمَاجَةً غَنِيَتْ مِنّــا(٥) العُيون بِهَا
عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَــدَا أوْ مَنْظَرٍ عَجَبِ

---

(١) قال الصولي : ويروى « تكشف » وهي رواية المرزوقي ، وكذلك هي في هـ س ، هـ ب .
(٢) ب : « منه » ـ ظ : « فيهم » .
(٣) هـ س : ويروى : « معهودا » .
(٤) م ، ل « ولو أدمــين » ـ س ، ظ ، د : « وان أدمــين » وفي د . « الى ناظري » .
(٥) م : « منها » ـ ورواية د « سماجة غيبت فيها العيون بها » .

٣٥ — وَحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تبْـدُو عَوَاقِبُهُ
جَـاءَتْ بَشَاشَتُهُ مِنْ سُوءِ مُنْقَلَبِ

٣٦ — لو يَعْلَمُ[(١)] الكُفرُكَم مِنأعصُرٍكَمَنَتْ[(٢)]
لَـهُ العَوَاقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ وَالقُضُبِ

٣٧ — تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِـاللهِ مُنْتَقِمٍ
للهِ مُـرْتَقِبٍ[(٣)] في اللهِ مُـرْتَغِبِ

٣٨ — وَمُطْعَمِ النَّصْرِ لَمْ تَكْهَمْ أسِنَّتُهُ
يَوْمـاً وَلا حُجِبَتْ عَنْ رُوحِ مُحْتَجِبِ

٣٩ — لَمْ يَغْزُ[(٤)] قَوْماً وَلَمْ يَنْهَدْ[(٥)] لى بَلَدٍ
إلاّ تَقَـدَّمَهُ جَيْشٌ[(٦)] مِن الـرُّعُبِ

٤٠ — لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ الوَغَى لَغَدَا
مِـنْ نَفْسِهِ وَحْـدَهَا في جَحْفَلٍ لَجِبِ

(١) م ، ل ، س : « لم يعلم » ورواية الأصل بهامش س .
(٢) ل ، ظ ، هـ س ، هـ م : « خبأت » .
(٣) م : « لله مقترب في الله مرتقب » .
(٤) م ، ل ، س ، ظ ، هـ ب : « لم يرم » .
(٥) ل ، د : « لم ينهض » .
(٦) ل ، هـ س : « جند » .

٤١ – رَمَى بِكَ اللهُ بُرْجَيْهَا فَهَدَّمَهَا
وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللهِ لَمْ يُصِبِ [١]

٤٢ – مِنْ بَعْدِ مَا أَشَّبُوهَا وَاثِقِينَ بِهَا
وَاللهُ مِفْتَاحُ [٢] بَابِ المَعْقِلِ الأَشِبِ

٤٣ – وَقَالَ ذُو أَمْرِهِمْ لا مَرْتَعٌ صَدَدٌ
لِلسَّارِحِينَ وَلَيْسَ الوِرْدُ مِنْ كَثَبِ

٤٤ – أَمَانِياً [٣] سَلَبَتْهُمْ نُجْحَ هَاجِسِهَا
ظُبَى السُّيُوفِ وَأَطْرَافُ القَنَا السُّلُبِ

٤٥ – إِنَّ الحِمَامَيْنِ مِنْ بِيضٍ وَمِنْ سُمُرٍ
دَلْوَا الحَيَاتَيْنِ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ عُشُبِ

٤٦ – لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيّاً هَرَقْتَ لَهُ
كَأْسَ الكَرَى [٤] وَرُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

---

(١) س : « لم تصب » .
(٢) في ظ : ويروى « والله فتاح » .
(٣) في ظ : ويروى : (أمنية) .
(٤) قال الصولي : والسُّلُب الأسنة الطوال وأحدها سلوب ، والصحيح انها الرماح لا الأسنة ، كما استدرك عليه ابن المستوفي .

٤٧ – عَدَاكَ (١) حَرُّ الثُّغُورِ المُسْتَضَامَةِ عَنْ
بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الحَصِبِ

٤٨ – أجَبْتَهُ مُعْلِناً بِالسَّيْفِ مُنْصَلِتاً
وَلَوْ أجَبْتَ (٢) بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجِبِ

٤٩ – حَتَّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشِّرْكِ مُنْعَفِراً
وَلَمْ تُعَرِّجْ عَلَى الأوْتَادِ وَالطُّنُبِ

٥٠ – لَمَّا رَأى الحَرْبَ رَأيَ العَيْنِ تُوفَلِسٌ
وَالحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المَعْنَى مِنَ الحَرَبِ

٥١ – غَدَا يُصَرِّفُ بِالأمْوَالِ جِرْيَتَهَا
فَعَزَّهُ البَحْرُ ذُو التَّيَّارِ وَالحَدَبِ

٥٢ – هَيْهَاتَ ! زُعْزِعَتِ الأرْضُ الوَقُورُ بِهِ
عَنْ غَزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غَزْوَ مُكْتَسِبِ

٥٣ – لَمْ يُنْفِقِ الذَّهَبَ المُرْبِي بِكَثْرَتِهِ
عَلَى الحَصَى وَبِهِ فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ

(١) ظ : « **حماك** » .
(٢) س ، ل : « ولو دعيت » .

٥٤ ـ إنَّ الأُسُودَ أُسُودَ الغِيلِ [١] هِمَّتُهَا
يَوْمَ الكَرِيهَةِ في المَسْلُوبِ لا السَّلَبِ

٥٥ ـ وَلّى وَقَدْ أَلْجَمَ الخَطِّيُّ مَنْطِقَهُ
بِسَكْتَةٍ تَحْتَهَا [٢] الأَحْشَاءُ في صَخَبِ

٥٦ ـ أَحْذَى قَرَابِينَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى
يَحْتَثُّ أَنْجَى [٣] مَطَايَاهُ مِنَ الهَرَبِ [٤]

٥٧ ـ مُوَكَّلاً بِيَفَاعِ الأَرْضِ يُشْرِفُهُ [٥]
مِنْ خِفَّةِ الخَوْفِ لا مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ

٥٨ ـ إن يَعْدُ [٦] مِن حَرِّها عَدْوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ
أَوْسَعْتَ جَاحِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ الحَطَبِ

٥٩ ـ تِسْعُونَ أَلْفاً كَآسَادِ الشَّرَى نَضِجَتْ
أَعْمَارُهُمْ [٧] قَبْلَ نُضْجِ التِّينِ وَالعِنَبِ

---

(١) م ، ل ، س ، ظ ، هـ ب : « أسود الغاب » .
(٢) ظ : « خلفها » .
(٣) م ، س ، هـ ب : « أخفى » .
(٤) س : « من الرهب » وبهامشها رواية الاصل . وقال في ظ : وبعضهم يروي « الى الهرب » ، والرواية الأولى أجود ، ويروى «على الهرب» ، ويروى : « بحيث أخفى مطاياه من الهرب » .
(٥) ل ، س : « يفرعه » وذكرت ظ هذه الرواية .
(٦) ظ : « ان تعد » .
(٧) س ، د ، هـ م : « جلودهم » ـ ورواية الأصل بهامش س .

٦٠ ــ يَا رُبَّ حَوْبَاء لَمَّا اجْتُثَّ دَابِرُهُمْ
طَابَتْ ولَوْ ضُمِّخَتْ بِالمِسْكِ لَمْ تَطِبِ

٦١ ــ ومُغْضَبٍ رجَعَتْ بِيضُ السُّيُوفِ بِهِ
حَيَّ الرِّضا مِــنْ رداهُمْ مَيِّتَ الغَضَبِ

٦٢ ــ والحَرْبُ قَــائِمَةٌ في مَأزِقٍ لَجِجٍ
تَجْثُو القِيَامُ بِهِ صُغْراً [1] عَلَى الرُّكَبِ

٦٣ ــ كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرٍ
وتَحْتَ عَــارِضِهَا مِنْ عَارِضٍ شَنِبِ

٦٤ ــ كَمْ كانَ في قَطْعِ أسْبَابِ الرِّقَابِ بِهَا
إلى المُخَــدَّرَةِ العَذْرَاءِ [2] مِنْ سَبَبِ

٦٥ ــ كَمْ أحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً
تَهْتَزُّ مِنْ [3] قُضُبٍ تَهْتَــزُّ في كُثُبِ

---

(١) س ، د : « جثواً » ورواية الأصل بهامش س ــ ل ، ظ : « صعراً » (بعين مهملة) وفسرها في ظ بقوله : أي متكبرين . وقال الصولي : ويروى « قسراً » ، ويروى « صفراً » وهو تصحيف .
(٢) هـ م ــ « الحسناء » .
(٣) م : « في » .

٦٦ – بِيضٌ إذَا انْتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِها رَجَعَتْ
أَحَقَّ بِالبِيضِ أتْرَاباً[١] مِنَ الحُجُبِ

٦٧ – خَلِيفَةَ اللهِ جَازَى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ
جُرْثُومَةِ الدِّينِ[٢] وَالإسْلامِ وَالحَسَبِ

٦٨ – بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَى[٣] فَلَمْ تَرَهَا
تُنَالُ إلاَّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَعَبِ

٦٩ – إنْ كانَ بينَ صُرُوفِ[٤] الدَّهْرِ مِن رَحِمٍ
مَوْصُولَةٍ أوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ

٧٠ – فَبَيْنَ أيّامِكَ اللاّتي نُصِرْتَ بِهَا
وَبَيْنَ أيّامِ بَدْرٍ أقْرَبُ النَّسَبِ

٧١ – أبْقَتْ بَني الأصْفَرِ المِمْرَاضِ[٥] كإسْمِهِم
صُفْرَ الوُجُوهِ وَجَلَّتْ أوْجُهَ العَرَبِ

---

(١) م ، س ، د : « أبدانا » وهي في هامشي ب ، س – ل : « أقرانا » – وقال الصولي في شرحه ويروى «أحق بالبيض من خدر ومن حجب».
(٢) ل ، ظ ، هـ س : « جرثومة الملك » – وفي ظ : قال أبو العلاء : ويروى « جرثومة الدين » .
(٣) س : « العيا » ورواية الأصل بهامشها – م : « العظمى » .
(٤) م ، ظ : « مرور الدهر » وقال ابن المستوفي : وفي نسخة « ان كان بين صروف الدهر » والذي أراه أن « مرور الدهر » أحسن لأن النصر في بار وعمورية ليس من صروف الدهر بل من حسناته وفي سائر الأصول التي بين يدي «صروف الدهر». وفي أصل الصولي «صروف» ولكن في كتابة الأخبار ص ١١٣ « مرور الدهر » .
(٥) س : « الأصفر المصفر » : وبهامشها : ويروى « المعتل » ، ويروى « المراض » أيضا .

بين يدي النص

قبل الولوج إلى دنيا النص في القصيدة ينبغي التنويه بأنَّ تجربة الشِّعر في نقل الوقائع الحربية غير تجربة التاريخ في نقلها . إنَّ الشّاعر يُسجِّل انعكاس الوقائع على النفوس ويترسم ظلال هذه الوقائع وموحياتها قبل الوقوع وبعده . فإن لامَسَ النّصرُ كبرياءَ الأمّة غدا الشِّعر نشيداً إسلامياً . إنَّ تفصيلات الوقائع قد تتشابه في كل ميدان ، وعلى كلّ ساح ، ولا كذلك الإحساس بالوقائع وظلال هذا الإحساس على النّاس ، وعلى أولي الأمر ، وعلى الشّاعر . وإنْ كان الشِّعْرُ الاستجابةَ الفوريةَ لتصفيات الأعداء في ساح الوغى ، فإنَّ الشِّعْرَ يكون أصدق من التاريخ ؛ ليس لأنَّ التاريخ يكون موضعَ شكٍّ ؛ ولكنْ لأنَّ الشعر يكونُ مادّةَ الجماهير في الوقت الذي يظل فيه التاريخ حبيسَ المُشاهدين والشهود أو حبيسَ الدواوين « والصوامع » العلمية . ولأنَّ التاريخ في معظم الأحيان يكون مشروعات استعادة الماضي السحيق نسبياً ؛ فإنَّ ذلك يُؤخِّر من عملياتِ تسجيل الدقائق الجزئية فيه .

فإن علمنا أن أبا تمام كان قد كوفِىء مبلغ ثلاثة وسبعين ألف دينار من

الذهب – ألف دينار على كل بيت – مقابل قصيدته في فتح عمورية من الخليفة المعتصم[1] ، يتبين لنا أنّ الشاعر كان قد عبر مادة المعلومات جيداً قبل صياغة قصيدته . وأن لو كان فيها غيرُ الذي قد حَدَثَ وَحَصَلَ لكننا قد سمعنا عشراتِ الرّواياتِ التي تُصحح ما اعوجَّ ، وتَهدي إلى سواء السبيل . إنَّ السكوت عن ذلك لهو الإقرار على أن ذلك كان وأنّه عين اليقين والصَّواب . فإن نحن نجحنا في التحليق إلى سماء الشاعر فنياً لنستبطن كوامن إحساساته الأدبية والفنية نكون قد ظفرنا بحلاوةِ الظّفَرِ ونشوةِ النصر التي كانت في فم كلّ مجاهد ، وعلى شَفَةِ كلّ غَيورٍ على أمجاد الإسلام ، وأمّة الإسلام . وإذا كان العدوُّ البيزنطي قد مات في عَموريّةَ مرّةً واحدةً وإلى الأبد ، فإنَّ العدو البيزنطي في هذا النشيد الأدبي يموتُ كلَّ يوم ألفَ مرَّةٍ ، وتبقى نشوةُ الإحساس بهزيمته زاداً لا يَنْضبْ لدى كل محبّ لتراثه ، ومتذوقٍ لنصوص أدبه وروائع لغته العربية ؛ ناهيك عن عزّة الدولة الإسلامية التي كانت الجَناحَ القويَّ لكل حِصْنٍ مُسلم ، وكل ثغر مُسلم ، وكل فرد مسلم . إن منـــاخ دولة الإسلام على عهد المعتصم لتظل القصيدة تُنشّره (بضم التاء وفتح النون وكسر الشين المضعفة (، وتوحي به ، وتعمل على تثبيته في أذهان النّاس . فإن سَرَت كبرياءُ النّصرِ والشعور بعزّة الإسلام في التعالي على تهديدات الأعداء كمثل ما نراه في هذه القصيدة العصماء ؛

---

(١) انظر : سنباط الإربلي : خلاصة الذهب المسبوك (بيروت : ١٨٨٥م ص ١٦٢) .

فما الذي يطفىء هذه الكبرياء بعْدَ ذلك . إنَّ الأدب الرفيعَ في الأمم هو الخيوط الخفية التي تظل تحْفِزُ النّاسَ سِرّاً كي يعودوا إلى أمجاد آبائهم ، والثأر لأممهم ، والاستفادة من أخطاء الماضي . والأمّةُ التي تفقد الإحساس بجمال نصوصها فهي أُمّة قد دخلت هاويةَ الهلاك وهي بَعْدُ متماسكةٌ على صعيد الأكل والشرب والشراء والاستهلاك — إلى حين بطبيعة الأمر . ولذلك كانت أُمّةُ القرآن الكريم أُمّةَ انتصارات مستمرة إذ كان يسري جمالُ البيان القرآني في النفوس المسلمة سريان الرّوح في الجسد . ومن كانت تلامس شغافَ قلبه نصوصُ القرآن الكريم كان ينتفض مارداً جبّاراً على كل قُوى الغزو والاجتياح والتحدي .

الشّاعِرُ في هذه القصيدة فنّانٌ مؤرخ لُغوي وموسيقي أيضاً . ولن نختلف مع الشاعر في الدّلالات اللغوية ولا يعنينا أن نختلف . إنَّ التحدي المطروحَ أمامَنا هو : كيف نستطيع أن نظفر بموحيات هذا الفن الأدبي كما قد أحسَّ بها الشّاعر أولاً ، وكما أحبَّ أن يوجّهها الشّاعِرُ ثانياً ، وكما أحَبَّ جمهورُ الشّاعر أن يسمعها ثالثاً .

أمّا الفنّ في القصيدة فلا أدلَّ عليه من هذا الطباق الهندسي الرائع ، وهذا الجناسِ التّامِ والناقص ، وهذا التوازن في الحُروف والأوزان ، وفي القوافي أيضاً . وإذن ، فلا بُدَّ أن تكون أدواتُ الشّاعر وأصباغُه وألوانُه ولوحاتُه من طبيعة فنّه ، وأن تكون قد اختيرت على علم وسابق تصميم

وإحكام . ولذلك ، فإنّ طمُوح المتذوق كبير في أن يلمح وراء كلّ اختيار تدبيراً ، ووراء السّطور سُطوراً – إن جاز التعبير . وبقدر ما تتكاملُ الرؤيةُ الفنيّةُ للقصيدة بمجملها وتتامٌ ، وبقدر ما تعملُ جزئياتُ القصيدة بانسجام متناغم ضمن هذا النظام ، بقدر ما نكون قد وُفّقنا إلى حقيقة الاستلهام المنشودة ، وهذا تحَدٍّ يتذوق حلاوة مُواجهته من ذاق حلاوةَ النّصوص وخبَرَ درجاتِ توَهُّجها وشفافيّتها وتحرُّكها في الأوساط المختلفة والكثافات المتباينة .

أوّلُ ما يُحِسّ به المتذوق أنّ القصيدة هي هندسة مرئية ومسموعة أيضاً . فبالقَدْر الذي تأخذ الألفاظ فيه حِلْيَةً عقليةً من طباقٍ وجِناس وترادفٍ وتفصيلٍ وإجمالٍ ، فإنّ الألفاظ تترتب على موسيقى داخلية ، وتناغم داخلي . وبذلك يشعر الداخل إلى مناخ القصيدة كأنّه في صالون **Gallery** أمام « ديكورات » قد أُحكم وضْعُها بعناية ، وفي أجواء موسيقية ذات أنغام متساوقة . وفي هذا التذوق سنحاول تبيُّن ذوق الشاعر في الإبداع الفني أولاً ،وذوق الشّاعر في وضع اللمسات الفنية على موهبته الشعرية ثانياً. وهنا ، وفي هذه القصيدة بالذات ، فإنّ كاتب هذا التذوق يرى أنّ التصنيع في هذا الشعر قد جمع بين الموهبة الشعرية وبين إرادة الفن والصّياغة على نحو يَعزّ أن نراه في أعمال الشاعر الأخرى خلا بعض القصائد الرائعة ، وفي أعمال كثيرين من أهل التصنيع والتصنُّع في العصور المتأخرة .

١ ـ السَّيْفُ أصْدَقُ أنْباءً مِنَ الكُتُبِ
في حَـدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِـدِّ واللَّعِبِ

« كان المنجمون قد حكموا أنَّ المعتصمَ لا يفتح عمورية ، وراسلته الرّومُ بأنّا نجدُ في كتبنا أنه لا تفتح مدينتُنا إلاّ في وقت إدراك التينِ والعنبِ ، وبيننا وبين ذلك الوقتِ شهورٌ يمنعك من المُقام بها البَرْدُ والثلج ، فأبى أن ينصرِفَ وأكبَّ عليها ففتحها فأبطل ما قالوا »[1] .

أوّلُ ما يطالعنا في القصيدة : السّيفُ . فإن كان الشّاعر أو راويتُه قد ألقى القصيدة هذه في السرادق الكبير في مَعيّة الخليفة والقادة والرؤساء الذين كان لهم دَوْرٌ في الإعداد والتخطيط والاقتحام ، فلا بُدَّ وأنْ وقف على لفظة السّيف بمفردها مَرَّة أو مرتين أو ثلاث مرات ـ توكيداً على دَورِه في حَسْمَ القضيّة الحَسْمَ النهائيَّ القاطِـعَ . الشاعر يقيمُ ممايزة بين السّيف من جهة وبين الكتب من جهة أخرى . وهذه الممايزة تعمل عملَها الأقوى في قضيّة « الأنباء » . وفي إعراب ذلك يقول الخطيبُ التبريزيُّ : « وقوله : « أصدق أنباء » كلام قد دخله ترجيح ، وهو من مواطن التمييز ، وإذا كان المميِّز ليس من نفس المميَّز جاز أن يقع واحداً وجمعاً مثل قوله : « أصدق أنباءً » ولو كان في غير الشّعر لجاز أن يقال نبأ »[2] .

---

(١) شرح التبريزي ص ٤٠ .
(٢) المصدر ذاته والصفحة ذاتها .

ولفظة « أنباء » بصيغة الجمع لهي بالغة الدّلالة في هذا المطلع على حجم التهويل والأكاذيب والحرب النّفسية التي كان قد رَوَّج لهـا البيزنطيون وأعوانُهم في المعسكر الإسلامي حتى لقد بلغ من كثرة ما أريد لهذه الأنباء الكاذباتِ أن تَجِدَ طريقَها إلى المعسكر الإسلامي ومن كثرة ما جُنِّدَ (بصيغة المجهول) لها من أعوان ومسرّبي أخبار ، ومن كثرة ما صُرِف عليها من أموال — أن بدأت تُحْدِثُ نوعاً من البلبلة في صفوف الجيش المسلم . فإذا علمنا أن الجيش قد كان فيه الترك والعجم تبين لنا أنّ هذه الدعاوى لربما وجدت لدى بعضهم آذاناً صاغية . يُصدّق ذلك كُلَّه هذه المترادفات الكثيرةُ التي تدور كلُّها حول تعميق الإحساس بهذه القضيّة . فقول الشاعر : « الحَدّ بين الجدّ واللعب » إشارة ضمنية إلى أنّ حدود اليقين كان قد شابها بعضٌ من سُحُبِ الشّكّ . وقوله : « الشّكّ والرِّيَبِ » تأكيد على أنّ هذه كانت قد أصبحت في وعي المعسكر الإسلامي أمراً واقعاً . وقوله : « جلاء » تأكيد على أنّ الغشاوة كانت قد « رانت » على عيون البعض في المعسكر الإسلامي .

أمّا أن يكون الشّكّ والرِّيَبُ في المعسكر البيزنطي — هو المقصود ، فذلك مُنتقضٌ بأنّ القصيدةَ موجهة إلى الخليفة وإلى المعسكر الإسلامي أولاً ، ومُنتقِضٌ بأنّ الشاعِرَ يتحدّث بعد ذلك عن البيزنطيين بضمير الغائب وليس بضمير الخطاب كما في البيت ١٥ ، و ٢٠ ، و ٢٣ ، و ٣١ .

وواضح أنّ المترادِفات في قوله : « الشك والرّيَب » دليل على أنّ

الأمر كان قد جاوز حُدود المقولاتِ التنجيمية إلى الظَن ّ بعض شيءٍ أنها ربما كانت تنبيء عن واقع صحيح . وإذا كان غرامُ الشاّعِرِ قد كان بالطّباق أولاً ، وبالجناسِ ثانياً ، وبالتوازن الموسيقي ثالثاً ، فإنّه قد أتى بالمترادف في هذا التركيب بعد أن وجد أن كلّ هذه الأدواتِ الفنيّةِ تهون أمامَ تبديد الوهم الذي قد ران على بعض العقول لدى بعض الناس في المعسكر الإسلامي . وهذا واضح أيضاً في إعادة التركيز على هـذه القضية مـَرّة بعـد مـَرّة ، وتقليبها من زوايا مختلفة ثم ختمها بتلك الخاتمة التي لم تدع فُرصَةً لإمكان وهم ولو كان واحداً في المليون ؛ وذلك حين يقول في هذا البيت المتماسك منطقاً بل المكثّفِ بقوة الأسْرِ (البيت العاشر) .

لَـوْ بَيّـنَتْ قَطُّ أمْراً قَبْـلَ موقعه
لم تُخْفِ مـا حَلّ بالأوثـانِ والصُّلُبِ

وما أحلى لفظة « قَطّ » في هذا السّياق ، وما كان أكبرَ دلالتها على محق الوهم ، وتبديد الظّنون . وهو بيتٍ بما رُتّب (بصيغة المجهول) منطقياً ، وما احتواه من حُروفٍ مضَعّفة ، واشتماله على « قط » ، وتوكيده الأوثان بالصّلُب للدلالة على ذات « البضاعة » — قد كان سرورُ الخليفة المعتصم به كبيراً — فيما نظن . وهو سياق منطقي ترسّمه الشاّعِرُ في قضية الوهم التي ظنّها بعض الناس حين صَدّق بعضُهم أنّ الجن تطّلع على الغيب فكان البرهان الساطعَ والمنطقَ القاطعَ قولُه تعالى بلغة مُدْركات البشر وبمنطق « منطقهم » — إن جاز القول : [فلمّا قضينا عليه الموت ما دَلّهُمْ على

موته إلاّ دآبّة الأرضِ تأكل مِنْسَأتَهُ ، فلما خرَّ تبيّنت الجنّ أنْ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العَذابِ المُهين] سبأ : ١٤ .

في قوله « حدّه ، الحَدّ ، الجِدّ » ليس فقط جناسات ناقصة بل التقارب في مخارج الحروف ، وتكرار أكبر عدد من الحروف بما يجعل اللسان قليل تنافر الحركات المتباعدة . وهو في العوامل التي تجعل الألفاظ سَلِسة تجري على اللسان كما يجري الدّهان .

٢ – بِيضُ الصَّفائحِ لا سُودُ الصَّحائفِ في
مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشّكّ والرِّيَبِ

« الصحيفة » الكتاب ، اسم شائع ، فيقال للكتاب الذي يكتب في الحاجة صحيفة ، وللدفتر صحيفة ، وكذلك المصحف . والصفائح : جمع صفيحة وهي الحديدة العريضة ، ويقال للسيف العريض كذلك . ويقول الخطيب التبريزي في معرض حديثه عن لفظتي الصفائح والصحائف : « والذين يتكلمون في نقد الشعر يسمون مجيء الصحائف مع الصفائح تجنيسَ القلب لأنَّ الهجاء متساوٍ ، وإنما قُدّمت الفاء »[١] . ولم يقل جِلاء الحقّ والرّيب لأن الحقّ معروف واضح جَليّ ، وإنما يُتبيّن ما يُشكّ فيه[٢] . ويقول

(١) ص ٤١ .
(٢) ذاته وذاتها .

الخطيب التبريزي في إعراب البيت : « ويحتمل أن يكون « في متونهن » خبر المبتدأ ، و « لا سود » معطوف عليه ، ويحتمل أن يكون « لا سُودُ » هو الخبر ، ويكون المعنى : أنّ السيوفَ غيرُ الكتب ، كما تقول : زيدٌ غيرُ عمرو ، أي شأنه غيرُ شأنه ، ثم بيّن فقال : في متونهن كذا »[1] .
وتقدير البيت كما يراه كاتب هذا التذوق هو : « جِلاء الشك في متون السيوف » أو « الجلاء في متون السيوف » كما نقول : « الجَنّة تحت ظلال السيوف » أو « الخيل معقود بنواصيها الخير » . فيكون الترتيب : « في المتون الجلاء » على اعتبار أن الجار والمجرور خبر مقدم ، والجِلاء مبتدأ مؤخر .

ويكون ثَمّةَ التقديرُ العامّ للبيت — فيما يراه كاتب هذا التذوق — وشداً لخيوط النسيج الواحد في التركيب الفني : « بيْضُ الصفائح تحمل النبأ الصادق » أو : « عندها العلم » . فيكون : « بيْضُ الصفائح » مبتدأ وجملة « في المتون الجلاء » في محل رفع خبر المبتدأ الأول . وبذلك تكون « لا سود الصحائف » معطوفة على المبتدأ الأول . يغري بهذا الاتساق المعنوي حديث الشاعر عن ذات المضمون في الأبيات اللاحقة .

وحتى يَطْرُدَ الشّاعِرُ أيَّ لَبْس قد يكون غشّى على الكتب بشكل عام جاء بالبيت الثاني يُقيّد نوعيةَ الكتب التي هي موضع الهجوم والتكذيب .

---

(١) ذاته وذاتها .

إنها سُود الصحائف . وقد وُفّقَ الشّاعِرُ في إقامة المقابلات بين البياض والسواد أيّما توفيق . وما أحلى ما يكون الصِدقُ مع البياض ، وما أوقَعه من تأثير أن يكون الشّكّ والارتياب مع السّواد . وكأنّ صورة المقابلة هذه كانت قد وجدت لدى الشاعر إعجاباً فطفق يؤكّدها ويُعَمّق الإحساس بها في مقابلاتٍ على مستوى الأبيات اللاحقة كما نرى في البيتين الثالث والرابع .

أمّا لماذا وُصِفت الصحائف بالسّواد في هذا السّياق ؟ هل كانت كتب المُنجّمين من الجلد الأسود بالذات ؟ هل كانت كتبُ المُنجّمين قد أعطت الانطباع هذا للشاعر لأنّ رَصْدَ النّجومِ يكون ليلاً ؟ أم أن كتب المنجمين قد كانت مُجَدْوِلة (بضم الميم وفتح الجيم وتسكين الدال) بمربعات ورسوم بيانية وكانت تستغني بالصور للحوت عن اسم الحوت وبالدلو عن اسم الدلو ، وبالعقرب عن اسم العقرب — كما لا يزال العمل به جارياً في قراءة الحظوظ والبخوت في الصحف العالمية عامّة ؟ إنّ هذه القرائن لتكثف الإحساس بالمعنى ،وإن كان الشاعر قد وقع في « سحر » تأثير واحد منها أكثر من غيره ثم كانت القرائن الأخرى رديفاً . ويُرَجّحُ كاتبُ هذا التذوق القرينةَ الأخيرة بحكم ما يراه من توكيد ذات المدلولات في الأبيات اللاحقة من ذكر السبعة الشهب (٣) ، والدهياء المظلمة (٧) ، ثم ذكر « دَلْوَيْ » الحياتين كما هو في البيت ٤٥ .

٣ — والعِلْمُ في شُهُبِ الأرْمــاحِ لامِعَةً
بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لا في السّبْعَةِ الشُّهُبِ

يَرُدُّ على المنجمين ما حكموا به لأن الظّفَر كان قبل حكمهم ، ويعني بِ « شُهُبِ الأرماحِ » أسنتها ، ويعني بِ « السّبعة الشّهُبِ » الطوالعَ التي أرفعُها زُحَل وأدناها القمر وبعضها الشمس . ولا يعرف أن الشمس جعلت شهاباً في كلام قديم ، ولكنها لما جاءت مع السّتة التي تُسمّى كلُّها شهاباً جعلت مِثْلَهُنَّ ، وكذلك القمر لغلبة ما كَثُر على ما قَلّ . وقوله « لامعة » نَصْب على الحال من شهب الأرماح ، وهي الرواية الصحيحة . ومنهم من يقول : « لامعُهُ » فيضيف « لامعاً » إلى الهاء وذلك رديء والوجه الأول هو الصواب . و « الخميسان » الجيشان ، ويقال إنّ الجيش سُمّيَ خميساً في زمان كانت الملوكُ إذا غزت أخذت خمس الغنيمة لأنفسها . فالخميس إذاً في معنى المخموس ، من قولهم خمستُ القومَ إذا أخذت خُمْسَ أموالهم [1] .

ويكون تقدير البيت — كما يراه كاتب هذا التذوق — : العلم : مبتدأ مرفوع بالضمة .

في شهب الأرماح : خبر المبتدأ (جار ومجرور ومضاف إليه) ، لامعة : حال من الأرماح منصوب .

وموضع « لامعة » على الحال له دلالته القوية ، وهو أنّ سَلّ السّيوف والرّماح من أغمادها والضربَ بها هو وحدَهُ الذي يَصْنَعُ الخبرَ اليقينَ

(١) شرح التبريزي ص ٤١ .

والعِلْمَ الأكيد لا سودُ الصحائف ولا الأرماحُ في أغمادها أو في ركونها إلى الدّعة . ومقصود بهذه المقدمات حتماً أفرادُ العساكر الذين ربما كان قد داخَلَ نفوسَهم شيءٌ من مَقُولةِ البيزنطيين وأبواقهم الدعائية . والتركيز على هذه المقدمات لا بُدّ وأنّه كان ألذّ من الشراب البارد على قلب الخليفة المعتصم . واشترط اللمعان في أرض المعركة لا اللمعان في البيت أو السرادق . وعليه فقوله بين الخميسين ظرف مكان يتعلق بـ « لامعة » . في محل نصب على الحال من الضمير في لامعة التي تعود على الرماح .

وواضح أن لفظة « شهب » تؤدي دلالة البياض التي أرادها الشاعر في السيوف ثم هي توطىء للفظة الشهب في القافية بما يصح أن يكون ترقب القافية – كما هو الشأن في مقاييس الجودة لدى عمود الشعر عند العرب . ناهيك عما يوفره الجِناسُ من مؤونة انتقال اللسان في « حجرات » الفم بما يجعله مخارج الحروف متقاربة . وبذلك يكون الكلامُ أكثرَ اتّساقاً وأكثرَ سلاسة .

٤ – أيْنَ الرّوَايَةُ أمْ أيْنَ النّجُومُ وَمَا
صاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيها ومِنْ كَذِبِ

بعد هذه المقدمات جعل الشاعر يتساءل مستنكراً : أين ثمّةَ كلُّ هذه الأباطيل التي ملأ الدنيا بها العَدُوُّ البيزنطيّ . وفي مثل هذا الموقف فإن كثرة المساءلة وكثرة الترادف والتوكيد على كل نقطة لهو في قمة التأثير الإنشادي

للقصيدة إن كانت القصيدة قد ألقيت في سرادقات الخليفة وجيشه المنتصر . إن كل استنكار وكل تعجب قد كان له فعل قوي من التقريع والتأنيب الداخلي لكل من داخل نفسَه بعضُ شك من أفراد الجيش والناس كما كان له فعل قوي من نشوة الاقتناع بأن كل هذه الدعاوى أباطيل مزوقة وزخرف كاذب قُصِدَ به التشويش على وضوح الحق ونصاعته .

٥ — تَخَرّصاً وَأحَادِيثاً مُلَفَّقَةً
ليسَتْ بِنَبْعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ

« التخرُّص » التكذُّب وافتراء القول ، و « ملفَّقَةً » أي ضُمَّ بعضُها إلى بعض وليست من شكل واحد . و « النَّبْع » شجر صُلب ينبت في رؤوس الجبال وتتخذ منه القسيُّ . و « الغَرَب » شجر ينبت على الأنهار ليست له قُوَّة . يقول : « هذه الأحاديثُ ليست بقوية ولا ضعيفة ، أي هي غيرُ شيء ، كما يقال : ما هو بخلٌّ ولا خمر ، أي هو كالمعدوم ليس عنده خيرٌ ولا شرٌّ »[1] .

وتقدير القول — كما يراه كاتب هذا التذوق — هو : كانت هذه الروايات تخرصاً وأحاديث ملفقة وأحاديث : ممنوعة من الصرف صرفت لضرورة الوزن . وهي ليست بنبع ولا بغرب . أي لم يتحقق منها كثير ولا

---

(١) شرح التبريزي ص ٤٣ .

قليل . وواضح أن التفصيل في هذه المترادفات والمتقابلات يعمق الإحساس بالصورة وبخاصة تشبيه الروايات بالعصي ما كان منها قوياً وما كان منها غير ذلك .

٦ – عَجَائِباً زَعَمُوا الأيّامَ مُجْفِلَةً
عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأصْفَارِ أوْ رَجَبِ

ويروى « مُجفلة » و « مُجْلِية » والأصلان مختلفان ولكن المعنيين يتقاربان ، تقول : أجفلت الحُمُرُ والنّعامُ إذا أحسّت بأمر يذعرها فهربت منه بعجلة ورُعْب ، ويقال : أجلى القومُ عن القتيل إذا انكشفوا عنه ، والنّعام إذا أجفل فقد انكشف الموضع الذي كان فيه . وقوله : « صَفَر الأصفار » عظّمَ شأنه لأنّه يُنتظر فيه أمرٌ شاقٌ ، كما يقال : فلان فارس الفرسان ، أي أشدُّهم بأساً ، وعلى هذا قولهم مَلِكُ الملوك وهِنْدُ الهنود . أي أخبروا أنّ أموراً تظهر في صَفَرٍ أو رَجَب ، وأنّ الأيّام تُسْرِع في إظهارها .

ويناقش الخطيب التبريزي أن أكثر ما يُستعمل « زعم » مع « أن » وإذا حذفوا « أن » نصبوا ما بعد « زعم » و « زعمت » وما كان منهما ، يقال : زعمتُ أخاكَ أميراً ، وزعم القومُ العراقَ مخصباً . فأمّا « الأيام » في بيت الطائي فيجوز رفعُها على أن يُلغى « زعموا » كأنه قال : عجائبُ الأيامُ مجفلةٌ عنها زعموا ، ويُجعل اعتماد الكلام على « عجائب » ، ويحمل

اللفظ على التقديم والتأخير ، وهذا كقولك : الشامُ كثيرُ الخير زعموا ، وأبوك واسِـعُ العطاء بلغني ، تريد بلغني ذلك فتأتي بالكلام الثاني بعد الأول[1].

ويرى كاتب هذا التذوق أن لفظة « عجائباً » هي مصدر ناب عن فعله ثم صِيغَ على الجمع للتكثير . وهي في موضع النصب بل وفي موضع الصرف (لضرورة الشعر) ذات رَنّة تحولية عالية للتمايز والمقايسة سواء كانت القصيدة تُلقى إنشاداً أم تكتب كتابة . وهي لفظة يصح أن يرددها الشاعر مرات كثيرة وفي كل مرّة يكون لترديدها متسع للتأمل والمتابعة . وكأن هذه اللفظة تكثيف قوله : « أية تناقضات هذه ». وذلك لأن المقولات التي أطلقها العدو كثيرة وشتّى .وواضح أن الشاعر كما تجرأ على « أنباء بدل نبأ » فقد تجرأ على جمع المصدر هنا .

أمّا إجفال الأيام فهو كما نقول : نام عنه الدهر أو غفلت عنه السنون . وأمّا « عنهنّ » في البيت فأمر يفسِّره الشاعر ذاته في البيت العاشر . وهو إلغاز ما كان أحسنَه لإثارة جوٍّ من الغموض الفني في المقدمة ثم يقوم النص بالتكفل للإجابة عنه من داخل كمثل هذا البيت . وهو قد عنى بـ «عنهن» الأوثان والصلب — وبذلك يكون المعنى قـد اكتمل على أمر قـد قُدِرَ فنياً . وسنرى في البيت الثلاثين أن الأيام قد كُرِّت بعد إجفال بما يتسق والسياق . وبذا تكون الأيام أيام الفتح وفتح الفتوح كما في البيت ١١ ويوم

(١) شرح التبريزي ص ص ٤٣ — ٤٤ .

وقعة عمورية البيت ١٣ . من هاهنا فتبين صعوبة الحكم على قصيدة أبي تمام تفاريقَ وأجزاء بمعزل عن السياق العام ونموه من داخل . ويستبعد كاتب هذا التذوق أن يكون المقصود أن الحظ قد أدبر عن المعسكر الإسلامي في هذين الشهرين .

٧ — وَخَوَّفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةً
إذَا بَــدا الكَوْكَبُ الغَرْبِيُّ ذُو الــذَّنَبِ

« دهياء » أي داهية ، يقال داهية دَهْياء ودَهْواء . وكانوا قد حكموا أنَّ طلوعَ ذلك الكوكب الموصوف يكون فتنةً عظيمة وتَغَيُّرَ أمرٍ في الولايات ، فأنكر الطائيُّ ذلك من أحكامهم [1] .

« دهياءَ » ممنوعة من الصرف وهي مجرورة بفتحة نيابة عن الكسرة ومظلمة صفة لها .

واضح قوله « النّاس » أن أمر أكاذيب البيزنطيين كانت قد نجحت بعض شيء في التسلل إلى عقول النّاس في المعسكر الإسلامي . وهذا يعني ضمناً أنَّ بعض أفراد الجيش المسلم في خلافة الخليفة المعتصم كان قد داخله بعض الوهم بصحة هذه الأباطيل وزخرفها .

---

(١) شرح التبريزي ص ٤٤ .

٨ ـ وَصَيَّرُوا الأبْرُجَ العُلْيَا مُرَتَّبَةً
مَا كَانَ مُنْقَلِباً أوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ

يعني بـ « الأبرج » بروج السماء التي أوَّلُها الحَمَل وآخرها الحُوت . والمنجمون يزعمون أنها على ثلاثة أقسام ، أربعة منقلبة ، وهي الحَمَل والسَّرَطان والميزانُ والجَدْيِ ، وأربعة ثابتة ، وهي : الثورُ والأسدُ والعقربُ والدَّلْو ، وأربعة ذواتُ جسدين ، وهي : الجوزاء والسّنبلة والقوس والحُوت . كانوا يحكمون في أخبارهم بهذه البروج إذا ورد عليهم خبر في وقت الطالع فيه برج ثابت حقّقُوه ، وإن كان الطالِعُ بُرْجاً مُنقلباً لم يحقّقوه (١) .

وأورد الخطيب التبريزي أن « مرتبة » رويت بفتح التاء وأن هذه الرواية وجه ضعيف . ويضيف التبريزي : « ولا يَحْسُن إذا كُسرت التاء أن يُجعل قوله « ما كان » في موضع نَصْب على المفعول ، لأن المعنى الأول أشبه بهذا الموضع ، إذْ كان المنجمون يجعلون في البروج منقلباً وثابتاً » (٢) .

وبذلك يكون التقدير كما يراه كاتب هذا التذوق : « وصيروا الأبرج مرتبة » . وتكون الأبرج مفعولاً أولاً ، ومرتّبة مفعولاً ثانياً ، والمفعول

---

(١) شرح التبريزي ص ص ٤٤ ـ ٤٥ .
(٢) شرح التبريزي ص ص ٤٤ ـ ٤٥ .

الثالث محذوف تقديره : « مقاليد الأمور » الذي يفهم من السّياق ومن البيتين التاسع والعاشر على التوالي . وبذلك تكون جملة « ما كان منقلباً أو غير منقلب » صفة للأبرج وفي موضع نصب . أو قد تكون بدلاً من الأبرج وفي موضع نصب أيضاً . وبذلك تبدو العلاقات اللغوية في تركيب البيت متسقة تمام الاتساق وأبيَنه .

وواضح شغف الشاعر بالجناس وتماثل الحروف بما يخدم قرب مخارج الحروف في الإنشاد .

٩ — يَقْضُونَ بالأمْرِ عَنْهَا وهْيَ غَافِلَةٌ
مَا دَارَ في فَلَكٍ مِنْهَا وفي قُطُبِ

كل مستدير فَلَك حتى يقال للقطعة المستديرة من الأرض فَلَك أيضاً ، والفَلَك مدارُ النجوم الذي يَضُمّها ، والقُطْب كلٌّ ما ثَبَتَ فدارَ عليه شيء ، وفي السماء قُطْبُ الجنوب وقطب الشمال . يقولون : يحكمون عليها بأحكام مختلفة وهي لا تعرف شيئاً من ذلك ، وما يحكمون به لم يَدُرْ في فلك منها ولا قُطْبٍ [1] .

يلاحظ العودة إلى المنجمين من خلال الضمائر في الأفعال الماضية والمضارعة . والضمائر في هذا المناخ أداة فنية للتنكير وإلقاء جو من الغموض

---

(١) ذاته ص ٤٥ .

على « هذا المجرم » الذي لا يُشَرِّفُ ذكرُ اسمه أحداً . « وهي غافلة » جملة إسمية حال من الضمير في عنها . والضمير عائد إلى الأبرج كما يفيد ذلك البيت السابق ، والواو واو الحال . وجملة « ما دار في فلك منها وفي قطب » بدل من من « هيَ » في محل رفع

١٠ — لو بَيَّنَتْ قَطُّ أمْراً قَبْلَ مَوْقِعِهِ
لم تُخْفِ ما حَلَّ بالأوْثَانِ والصُّلُبِ

وهنا يصل الشاعر إلى قِمّة التصعيد الفنّي لمقدّماته التي أفاض فيها والتي كان منشدُه قد كرّرها عدة مرّات إن كانت قد ألقيت « حيّة » في سرادقات الخلافة عقب النصر . وهو حسم منطقي كان الشاعر قد ترسّمه في قوله تعالى [. . . فلما خَرَّ تبيَّنت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المُهين] سبأ : ١٤ — كما سبق أن قدّمنا (لاحظ قوله بيّنت وقوله تبيّنت) وبذلك تكون المقدّمة التي استطالت على حساب استغلال النتيجة لصالح ضرب الوَهَن (بفتح الهاء) الذي قد ينسرب إلى بعض النفوس من خلال المقولات الفاسدة والمضلِّلة (بكسر اللام الأولى المضعّفة) قد خُتمت ختاماً منطقياً لا تعقيب عليه . وبذلك تكون المقدّمة قد فازت الفوز الفنّي واللغوي والمعماري والموسيقي كما قد فازت الفوز المنطقي المتماسك . وما نظنُّ أحداً يرى في استخدام المحسِّنات اللفظية والمعنوية لهذه المقدّمة مجاوزة للإبداع الفني ومصادرة على المطلوب . إنّ الفن واللغة والحلية اللفظية والمعنوية

والموسيقية والتاريخ والدلالات النفسية قد « وُلِدَت » في المقدمة فَنّاً شعرياً سَوِيّاً .

وما كان أحيلاه قَرْنُ الأوثان والصُّلُب على صعيد واحد هو صعيد الترادف . وبذلك يكون قرَّر أن البيزنطيين وإن حملوا شارات الصَّليب على الظاهر إنما هم مشركون كما هم المشركون من عَبَدَة الأوثان كأهل مَكّة قبل الفتح الإسلامي . وإذن فالمعركة بين توحيد وشرك ، بين حق وباطل ، بين إسلام وكفر . وهي قرينة كان قد صرَّح بها الشاعر أبو تمام علناً حين عقد مقارنة بين هذه المعركة من جهة وبين معركة بدر التي قررت مصير الشرك إلى الأبد لصالح الإسلام – من جهة أخرى . وذلك حين يقول في البيت رقم ٧٠ :

فَبَيْنَ أيّامِكَ اللاّتي نُصِرْتَ بها وبَيْنَ أيَّامِ بَدْرٍ أقْرَبُ النَّسَبِ

والضمير في « بَيَّنَت » و « تخف » راجع إلى البروج .

١١ – فَتْحَ الفُتُوحِ تَعَالى أنْ يُحِيطَ بِهِ
نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

« أن يحيط به » أي من أن يحيطَ به . والأبين في غرض الشاعر أن يكونَ « فتحَ الفتوح » منصوباً مُبيّناً لقوله ما حَلَّ بالأوثان ، ولا يمتنع رَفْعُه على كلام مستأنف »[1] .

(١) شرح التبريزي ص ص ٤٥ – ٤٦ .

وكاتب هذا التذوق يرى أنّ فتحَ الفتوح منصوب على النّداء . وما نظن أنّ الشّاعر وقد ختم المقدمة بمثل هذا الإحكام قد عاد « يـُفَسّـر » من جديد . ثم إنّ الشّاعر وقد انتهى من موضوع مقولات العدو ودعاواه الفارغة يريد أن يضع جمهور القراء والمستمعين أمام مشهد فيه جدّة وفيه إثارة فكرية . يُعزّز هذا الرأيَ قولُه في البيت الذي يلي عقيبه « يا يـَوْمَ عموريّـةَ » . وهل يمكن أن يكون الشاعر يتطلع ببصره الآن إلى السّماء وإلى العلو والتعالي ولا يستخدم أسلوب النداء الذي هو مادّة هذا « التعامل » الزماني والمكاني ؟ فهو في قوله « تعالى » يريد استمرارية الفعل وهو يتعالى . وهو في قوله « نفتح أبواب السماء له » إشارة إلى العلاء بما يستوجب أسلوب النداء أكثر من غيره . وقوله « تفتّحُ » بمعنى تتفتح وهو ضوء يلقى على قوله « تعالى » بمعنى يتعالى .

وإذا كان هذا مقبولاً فإنّ الشّاعر كان قد رتّب في طريقة الإنشاد أن يكون التوجه بالبَصر والجبهة والتطلعات إلى السماء وإلى أعلى وأن يكون الوقف على « فتح الفتوح » طويلاً مستأنياً . وحين يستأنف الشاعرُ أو المنشدُ قراءة باقي البيت كان يتحول ببصره من السّماء إلى جمهور الحاضرين والمشاهدين . وبذلك يكون لضمير الغائب في « به » طعمُه المميز في السّياق وفي التركيب اللغوي .

وواضح حرص الشاعر على التقسيم والجمل المتوازنة في قوله « نظم من الشِّعْر أو نَثْرٌ من الخُطَبِ . » . وتكون جملة « تعالى أن . . . »

جملة مستأنفة ويستبعد كاتب هذا التذوق أن تكون « تعالى » في موضع الحال كما قال ابن المستوفي [1] . ويرى كاتب هذا التذوق ما رآه ابن المستوفي من كراهية استخدام « تعالى » في غير موضعه الأصلي .

١٢ — فَتْحٌ تَفَتَّحُ أبْـوابُ السَّمَاءِ لَهُ
وتَبْرُزُ الأرْضُ في أثْوَابِهـا القُشُبِ

يقول الخطيب التبريزي : « تفتح أبواب السّماء له » أي بالغيث والرحمة ، وقِيلَ لأنه من معالم الإسلام وليسَ كل الفتوح كذلك . و« تبرز الأرض » مَثَلٌ لتعظيم الفتح ومَسَرَّة أهل الإسلام . و « القُشُب » جمع قشيب وهو الجديد ، وقد يكون الخَلِق في غير هذا الموضع » [2] .

ويكون التقدير « هذا فتح » وجملة « تَفَتَّح أبوابُ السماء له » في محل نصب على الحال من « فتح » والذي جرى التنويه به والتعريف عليه في البيت السابق . ويستبعد كاتب هذا التذوق أن يكون موقع جملة « تفتح وما بعدها » على الخبر لأن السّياق ينفيه . وكذلك جملة « تبرز الأرض » هي في موضع نصب على الحال من الضمير في « فتح » — كما يراه كاتبُ هذا التذوق .

وتفتَّحُ أبوابُ السماء ليس « بالماء المنهمر » أو الغيث كما ذكر الخطيب

---

(١) انظر : شرح التبريزي : الحاشية ملاحظة رقم ٣ .
(٢) ص ٤٦ .

التبريزي في هذا الموضع ، ولكنه تفتح أبواب السماء ليصعد إليها الكلم الطيّب والعمل الصالح[1] كما أن منه إشارة ضمنية إلى مباركة الملائكة لهذا الفتح[2] . يزكّي هذا الرأي القرينة في قوله « تعالى » في البيت بما يَدُلّ على أن اتجاه « التوجه » هو إلى أعلى مَحلاً حقيقياً ومجانياً . كما انه ليس هنالك في القصيدة بما يشعر أن المطر قد كان له تداخل وبخاصة في مناظر الليل الذي أصبح كالنهار أو النهار الذي أصبح كالليل من نيران الحرائق — في الأبيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

وشبه الجملة من الجار والمجرور في قوله « في أثوابها القُشُب » — كما يراها كاتب هذا التذوق — في محل نصب على الحالية من « الأرض » . وهو نظير قولهم : « جاء الأميرُ في حاشيته » .

وإضافة الأثواب إلى الأرض فيه إسباغ ما يتعلق بالإنسان على الجماد بما يُعَمّق الإحساس بالفعل والمنظر ومتعلقاته . وكأنّ الأرض قد اكتست حُلَل البهجة احتفاءً بالنّصر علاوة على لونها الأخضر بما اكتسته من دماء

---

(١) قال تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) سورة فاطر : ١٠ .

(٢) قال تعالى (فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) الأنفال : ٩ . وذلك في وقعة بدر . انظر تفسير الجلالين (مطبوعات دار مروان — دار العربية لمقدمة سورة الأنفال ص ص ٢٣٤—٢٣٥) .
ولما كان الشاعر قد عقد مقارنة بين عمورية وبدر فواضح أنه عبر هذه المعلومات جيدا وكانت في وعيد عند الحديث عن هذه الامور .

المجاهدين كمثل حديثه عن استشهاد محمد بن حميد الطوسي [1] . وذكر السماء والأرض مع ما فيهما من مقابلة تعمّق الإحساس بالصورة المطلوبة لهما قرينة قرآنية أيضاً . ففي قوله تعالى [فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين] الدخان : ٢٩ إشارة بالغة إلى أن السماء والأرض تتخذان موقفاً من السّخط أو البهجة — كتعبير عن إرادة ربّ العالمين . وكأنّ الشّاعر قد لمح هذه القرينة فحوّلها عن مقامها في فرعون وقومه إلى أن تكون في موقع الرضى والبهجة والمَسرَّة .

١٣ — يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمّورِيّةَ انْصَرَفَتْ
مِنْكَ المُنى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ

حُفَّل : جمع حافل وهي التي حَفَل ضرعُها باللبن ، يُقال ناقةٌ حافل وشاة حافل ، وهو هاهنا مستعار للمُنى . و « المعسولة » التي فيها العَسَل ، يُقال عَسلتُ الطعامَ فهو معسول وعَسّلتُه فهو مُعَسَّل . و « الحَلَب » هاهنا ما حُلِب من اللبن وهو مستعار ، ويكون الحَلَبُ مصدر حَلَبْتُ حَلْباً والمعنى الأول أجود [2] .

يقول أبو تمام : « إن الأماني الحافلة بالتطلع إلى النصر وأمَل الغلبة

---

(١) تردى ثياب الموت حمرا فما رجا
لها الليل الا وهي من سندس خضر

(٢) شرح التبريزي ص ٤٦ .

أصبحت بفتح القلعة حُلوة حلاوة العسل ، إنها أشبه بضرع حافل يُدِرُّ عَسَلاً . أن يكون هناك ضرع يدر عسلاً بدل الحليب ؟ تلك صورة غريبة ولكنها صورة معبِّرة عن الحضارة الرخية في القرن الثالث الهجري » [1] .

تردى ثياب الموت حمراً فما دجا لها الليل إلاّ وهي من سندس خضر

واضح طريقة نداء يوم عمورية بما يؤكد أن « فتح الفتوح » هو مخاطب على النداء أيضاً . « حفلا معسولة الحلب » أحوال منصوبة من « المُنى » . ثم واضح تشبيه المُنى بالضروع والأثدية التي قد حفلت بالعسل بديل اللبن.وهي اشارة الى تشبيه اليوم بالذكر وعمورية بالأنثى والمنى ثدياها.

١٤ – أبْقَيْتَ جَدَّ بني الإسْلامِ في صَعَدٍ
والمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّرْكِ في صَبَبِ

« الجَدُّ » هاهنا الحظ ، و « بنو الإسلام » الذين يدخلون فيه ويُنسبون إليه . و « الصَّعَدُ » المكانُ الذي يُصْعَدُ فيه ، و « الصَّبَب » المكان الذي يُنْصَبُّ فيه أي يُنْحَدَر ، ويُقال لهما الصَّعُود والصَّبوب [2] .

لقد أبقيتَ يا يومَ عموريةَ حَظَّ بني الإسلام في صعود . وهذا في

---

(١) محمد علي ابوحمدة : أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة (دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت : ١٩٦٩م) ص ٩٨ .
(٢) شرح التبريزي ص ٤٧ .

انسجام تام مع وجهة السير إلى أعلى التي علّمنا عليها في قوله« تعالى » وفي قوله « تفتّحُ أبوابُ السماء له » .ــ على المحلّ الحقيقي والمجازي . والصورة هذه لها في شعر النابغة الجعدي أصل وقرينة :

بلغنا السماء مجْدُنا وجدودُنــــا وأنا لنرجو فوق ذلك مظهرا [1]

في مقابل هذه الأمجاد والجدود الصاعدة فإن المشركين ودار الشرك في انحدار وهبوط نحو الأسفل حقيقة ومجازاً . وهذه الموازنة في التقابل بين الإسلام وبين الشرك وبين المسلمين وبين المشركين ، وبين الصعود وبين الصّبب لهي في موازنة عقلية أيضاً بين صعود حظوظ الإسلام وبنيه من جهة وبين هبوط الشرك والمشركين من جهة أخرى ــ في ذات المعادلة ، وضمن ذات الرؤية أو قل اللقطة الفنيّة . وما أذكر هذا البيت لأبي تمام إلاّ وأبْصرْتُ أمام ناظريَّ ــ على التخيل ــ منظر السلالم الكهربائية دائمة الصعود من جهة والهبوط من جهة أخرى . ولا يخفى جمال دلالات البيت من حيث الإحساس بالأبعاد والمفارقات واستمرارية فعل النتائج لصالح الإسلام على حساب الكفر والشرك ، ولعله قد قصد بدار الشرك القسطنطينية التي كانت قصبة الدولة البيزنطية .

١٥ ــ أمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أنْ تُفْتَدَى جَعَلُوا
فِـــداءَهــا كُــلَّ أُمٍّ مِنْهُــمُ وَأبِ

---

(١) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز (ط ٢ . مكتبة القــاهرة . القاهرة : ١٩٦١م) ص ١٦ .

« الأمُّ » أصل الشيء ومعدِنُه . يقول : هذه البلدة أمُّهم تجمعهم وتضمّهم كما تضمُّ الأمُّ ولدَها ، فلو استطاعوا لافتدوا خرابَها بكلّ أمّ لهم ولدتهم وأب [1] .

واضح الطباق المعنوي بين أمٍّ وهي عمورية وبين أُمٍّ كل واحد من أبنائها . والإشارة هنا لها دلالة جغرافية وهي أن هذه المدينة كانت قصبة للبيزنطيين وفي موقع متوسط لديهم .

١٦ — وبَرْزَةُ الوَجْهِ قَدْ أعْيَتْ رِيَاضَتُها
كِسْرى وصَدَّتْ صُدُوداً عَنْ أبي كَرِبِ

يقال امرأة بَرْزَةٌ إذا كانت تخاطب الرّجال ولا تَستَّرُ منهم . وزعم قومٌ أنه يقال للحيِيّة بَرْزة . واشتقاقُه من برزتْ أي ظهرتْ . يقول : هي مع بروزها للنظر قد أعيت كسرى إذْ كان لا يقدر عليها ، وقيل كان كسرى قد فتحها ، بعَثَ إليها الإصْبَهْبَذ ففتحها ثم استعصى عليه وصارَ مع ملك الروم.وأبو كَرِب كنية أحد التبابعة . ومن ذَهَب إلى أنَّ البَرْزَة الحيِيّة فهو يحتمل هذا المعنى ، أي أنَّ هذه البلدة كانت كالمرأةِ المتخفّرة التي لا ينظر أحدٌ إليها [2] .

موحيات الألفاظ تَدُلّ على أنَّ عموريّةَ كانت على أعالي الجبال

---

(١) شرح التبريزي ص ٤٧ .
(٢) ذاته ص ٤٨ .

بحيث يبدو أعلاها من أمكنة بعيدة جداً وكأنّ جسمها كان ملفوفاً بالأشجار والجبال ولكن مع ذلك كان أعلاها يبدو من على البعد [1] . ويبدو أن الفُرْس كانوا جرَّبوا حظهم مع هذه المدينة فتأبّت عليهم حتى كأنّ كسرى قد أرهق وأعيا من متابعة احتلالها وامتلاكها . وكأنّ هذه المدينة قد كانت فوق مقدور حلول التبابعة على التفكير بها وإمكان اقتحامها . واتّساقاً مع هذا الإيحاء فإنّ بَرْزَة الوجه تكون بمعنى بارزة وظاهرة . وهذا في انسجام مع الاعتبار الضمني لوجود المنعة والتحصينات الكثيرة لحمايتها .

١٧ — بِكْرٌ فَمَا افْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ
ولا تَرَقَّتْ إليْهَا هِمّةُ النُّوَبِ

« افترعَها » إذا افتضَّها ، أي أن هذه المدينة لم تفتح قبل هذا الفتح » [2] .

والتقدير : هي بِكْرٌ . وإسناد الكف للحادثة وإسناد الهمة إلى النائبات تجسيد . أمّا أن هِمّة النوب لم تستطع الصعود إلى هذه المدينة المحصنة وأن تطاولها فذلك أمر واضح . أمّا أن يُسْنَد افتراع أو محاولة افتراع البلدة البِكْر إلى كَفِّ الحوادث فذلك على سبيل الاستعارة .

١٨ — مِنْ عَهْدِ إسْكَنْدَرٍ أوْ قَبْلَ ذلكَ قَدْ
شَابَتْ نَوَاصِي اللّيَالي وهْيَ لم تَشِبِ

(١) ولا تكون الفتاة برزة في المجتمع العربي الا اذا كانت ممنعة في الاهل والحراسة والحماية .
(٢) شرح التبريزي ص ٤٨ .

أي قد حاول غشيانها المهاجمون من عهد الإسكندر أو قبل ذلك فلم يفلحوا. ولأن التحصينات فيها قوية فكأن شَعَرَ نواصي الليل قد أدركه الشيب ولحق الليلَ الهَرَمُ وهي هي لم ينتقص من شبابها وتحصينها شيء .

١٩ ــ حَتّى إذَا مَخَّضَ اللهُ السِّنينَ لَهَا
مَخْضَ البَخِيلَةِ كَانَتْ زُبْدَةِ الحِقَبِ

يقول الخطيب التبريزي : « هذه استعارةٌ لم تُستعمل قبلَ الطائي . وأصلُ « المَخْضِ » في اللّبن ، يُقال مَخَضْتُ الوَطْبَ مَخْضاً إذا حَرَّكته لتُخرِج زُبْدَه . وجعله مَخْضَ البخيلة لأنها أشدّ اجتهاداً من السّمْحَة ، فهي تُطيل مُدّةَ المخض . ومن روى : « مَخض الحليبة » أراد ما حُلِبَ من اللبن ، والرواية الأولى أجود. يقول : جمع خيراتِها كما يجمع خير ما في اللبن بالمخض »[٢] .

ويورد الخطيب التبريزي رواية « مَخْضَ الثّميلة » ، وهو ماء الكرش . أراد : « حتّى إذا جمع الله خيرات السّنين وأظهرها كما يظهر اللّبن من الثّميلة ، كما قال تعالى : [من بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ لَبناً خالِصاً] (النحل : ٦٦) فصارت هذه البلدة زُبْدَةَ السِّنين أتتهم الكُرْبَة »[٢] .

---

(١) ذاته ص ٤٩ .
(٢) ذاته ص ٤٩ .

و « الحِقَب » جمع حِقْبة وهي السّنة ، وقيل الحقْبَةُ من الدهر : بُرْهَة غير محدودة إلاّ أن زمانُها يطول [1] .

والاستعارة هذه على أنّ السنين بمنزلة اللبن (الحليب) والبلدة بمنزلة زبدة اللبن المتكثف من عملية المخض . والمخض عملية فيها قلقلة . وإذن فكلما كانت هذه البلدة تُرمى بالغزاة والمهاجمين وتتعرض للكوارث كان ذلك يكسبها حصانة ومَنعة وكانت تزداد في الخير كما هي الزبدة والبخيلة أقدر على استخراج الخير كله وهو الزبدة .

٢٠ ـ أتَتْهُمُ الكُرْبَـــةُ السّوْداءُ سَادِرَةً
مِنهَـــا وكَانَ اسْمُهَا فَرَّاجَةَ الكُرَبِ

يقول الخطيب التبريزي : « من كلامهم أن يصِفوا الخَطْبَ الشديدَ بالسَّواد تشبيهاً بالليل المظلم ، ومن ذلك الحديث المشهور : « أتتكم الفِتَنُ كأنَّها قِطَعُ الليل المظلم » . ويقولون اسوَدَّ نهارُه ، إذا جاءه أمر يَحْزُنه فصار نهاره كالليل . و « سادرة » من سَدَرَ العَين ، يقال سَدِرَت عينُه إذا أظلمتْ ، ويجوز أن يكونَ من قولهم جاء فلانٌ سادراً إذا جاء لا يهتمُّ للشيء ، وهو يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون من سَدَرَ البصر ، والآخرُ أن يكون من قولهم سَدَرَ ثوبَه مثل سدَلَه والهاء منها راجعة إلى عمورية »[2] .

---

(١) ذاته وذاتها .
(٢) ذاته ص ٥٠ .

والصورةُ – كما يراها كاتبُ هذا التذوق – أنّ هذه البلدة التي كانت زُبدةَ العُصُر الحوالي والتي اسمها صيغة مبالغة للإعمار والتعمير (إن كان الشاعر يريد دلالة اللفظة بالعربية) : والتي هي في معنى «الجرأة في الحُبّ» إن كان الشاعر قد قصد دلالة اسمها في اللغة البيزنطية – كما يُصرّح بذلك معجم أكسفورد تحت اسم **Amorist** بما يظن أنها أصل اللفظة الانجليزية ؛ – أو فرّاجة الكُرَب – قد جاء البيزنطيين ومنها الكروبُ السّودُ السّادرة أي التي تُعمي الأبصار .

٢١ – جَرَى لَهَا الفَألُ بَرْحاً يَوْمَ أنْقِرَةٍ
إذْ غُودِرَتْ وَحْشِيَّةَ السّاحَاتِ والرَّحَبِ

«الفأل» قد استعمله مُذَكّراً ، وقد ادّعى بعضُ النّاس أنه مؤنّث ، والتذكير أشهر . وأكثر ما يجيء الفأل في معنى الخير كأنّه عندهم ضد الطّيَرَة . ويجوز أن يقع الفأل على ما كان من خير وشَرٍّ ، وهو في بيت الطائي على معنى الشر . و «بَرْحاً» مصدر بَرَحَ يَبْرَحُ من البارح وهو ضدّ السّانح ، والعرب تختلف فيهما : فيقولون السانح ما وَلاّكَ مياسِرَه ، والبارح ما ولاّك ميامِنَه ، وبعضهم يعكس ذلك . و «أنْقِرة» موضع في بلاد الروم وبه قبر امرىء القيس ، يروى بضم القاف وكسرها وفتحها . و «وحْشَة» أي مُوحِشَةُ السّاحات ، وقيل أراد وَحِشَة فَسَكّنَ الحاء[1].

---

(١) شرح التبريزي ص ٥٠ – ٥١ .

ويورد الخطيب التبريزي رواية من قال « وخشة السّاحات » بالخاء ، ويذهب إلى معنى الخراب ووقوع بعضها على بعض ، من قولهم : أوخشوا الشيء أي خلطوه . ومنه الوخشُ الدنيّ من الرجال والأخلاط ، الواحد والجميع . و « الرُّحَب » جمع رَحْبَة ورَحَبَة ، والأصل أن يُقال رحاب بالألف فحذفت لأنها حرف ليّن ، كما قالوا شِلَل في جمع شَلّة ، والأصل شلال (١) .

وبذلك يكون يومُ أنقرة قد كان لها «الطَّيْر» تَمُرّ بها بنحسٍ (تبرح شمالاً) فصارت وهي الآهلة بالسكان موحشة مقفرة من أهلها في الرُّحب والسّاحات . وتكون « برحاً » مصدراً نائباً عن المفعول المطلق لتوكيد وقوع النحس . وتكون لفظة « وحشة » في محل نصب على الحال من الضمير العائد إلى عمورية .

٢٢ — لمّا رَأَتْ أُخْتَها بالأمْسِ قَدْ خَرِبَتْ
كانَ الخَرَابُ لَهَا أعْدَى مِنَ الجَرَبِ

الهاءُ في « أختها » راجعة على عَمّورية ، ويريد بأختها أنقرة ، أي أنها لمّا خَرِبَتْ وهي أختُ عموريّة أعَدْتها بالخَرَب ، والجَرَبُ يوصف بالعَدْوى (٢) .

---

(١) ذاته ص ٥١ .
(٢) شرح التبريزي ص ٥٢ .

واضح رَدّ العجز على الصَّدر وترقب القافية ثم تجانس مخارج الحروف في خربت وخراب وجرب . رأت فعل الشرط وجملة «كان الخراب ...» جواب الشّرط .

٢٣ – كَمْ بَيْنَ حِيطَانِها مِنْ فارِسٍ بَطَلٍ
قَانِي الذَّوَائِبِ مِنْ آنِي دمٍ سَرِبِ

« قاني الذوائب » مُحمرُّها ، وأصلها الهمزة . و « الآني » الحار ، وأصلُهُ في الماء الحار المُغْلَى ، واستعارَه هاهنا للدم ، و « سَرِب » أي سائل [1] .

ومدح فرسانها بالبطولة إشارة إلى كفاءة الجيش المسلم في الجهاد وصرعه الفرسان من الدرجة الأولى . ونزف الدم الحار القاني إشارة إلى نزف الكبرياء البيزنطية أمام الكبرياء الإسلامية . والذوائب كناية عن الشرف والكبرياء . فحين تكون معفرة بالتراب والدم فذلك تمريغ لها .

٢٤ – بِسُنَّةِ السَّيْفِ والحِنَّاءُ مِنْ دَمِهِ
لا سُنَّةِ الدِّينِ والإسْلامِ مُخْتَضِبِ

أي خُضِبَ شَعْرُه بسُنَّةِ السيف أي بما سَنّهُ وحكَمَ به ، لا بسُنَّةِ

---

(١) ذاته وذاتها .

الإسلام ، لأنَّ الصحابة والتابعين كانوا يرَوْنَ من السّنة أن يخضبوا شعورَهم بالحِنّاء والكَتَم وما يجري مجراهما من نبات الأرض ، ويكرهون الخِضابَ بالسواد ويؤثرون الحُمرة ، وفي الحديث أن أبا بكر رضي الله عنه اطّلَع إلى أصحابه في مرضه وأسماءُ بنتُ عُمَيس تمسكه وكأنَّ لحيتَه ضِرامُ عرفج [1] .

ويقول الخطيب التبريزي في بيان المعنى : « والمعنى الذي بناه عليه الطائي بَيّنٌ واضح ، وقد يجوز أن يقولَ القائلُ إنَّ خضابَ هذا الكافر بهذا الدَّمِ من سُنّةِ الدين والإسلام ، إذْ كان الجهادُ مفترضاً على المسلمين . وبعضهمُ يُنْشِد : « بسُنّةِ السّيفِ والخطيِّ من دمِه » : وهو أجودُ في صحة المقابلة ، لأنّه يقابل الدين والإسلام بشيئين ليسا في الحقيقة مختلفين ، إذ كانا من آلة الحرب ، وهو في الرواية الأخرى يقابل الدين والإسلامَ بالسّيف والحِنّاء ، وليس الحِنّاءُ من جنس السّيف . ويجوز رفعُ « الحناء » وخفضُه ، فإذا خُفِض كان قوله « من دَمِه » في موضع الحال » [2] .

وكاتب هذا التذوق يرى أنَّ الشّاعر إنما ذكر أعلى الشعر كناية عن

---

(1) ذاته وذاتها . والضرام : لهيب النار ، والعرفج : نبت طيب الريح ، عيدانه دقاق ، ولهبه شديد الحمرة ، وهو سريع الاشتعال بالنار . شبهت لحيته بضرام العرفج لانه كان يخضبها بالحناء . حاشية رقم ٤ .

(2) شرح التبريزي ص ص ٥٢ ـ ٥٣ .

كبرياء المحارب يعزّز ذلك إشارته إلى نواصي الليالي في البيت ١٨ .ولا خفاء أن الناصية هي موضع شرف المحارب.وكان جز الناصية للأسير بمثابةإذلال له. ولما كانهذا الشعر قد أصبحاليومَ مخضوباً باللون الأحمر القانيفكأنّهقد اتّبع السُنّة بالخضاب باللون الأحمر . ولكن أيّة سُنّة ؟ إنّها سُنّةُ السّيْفِ لا سُنّة الدين والإسلام . ولو كان سنّةَ الدين والإسلام لكان الحِنّاء هو الخضاب . ولكنّ خِضاب سُنّة السيف هو الدّم ، وكذا كان . ويكون التقدير في إعراب البيت : « كم من فارسٍ بَطَلٍ قاني الذوائب مُخْتَضِبٍ بسُنّة السيف (وحِنّاءُ سُنّة السيف تؤخذ من دم الفارس) لا سُنّة الدين والإسلام ! » . وعليه يكون إعراب « الحنّاءُ من دمه » الحِنّاءُ : مبتدأ مرفوع . مأخوذ أو يؤخذ : الخبر . من دمه : جار ومجرور متعلقان بـ يؤخذ . وتكون الجملةُ الإسميةُ من المبتدأ والخبر جملة اعتراضية لا محلّ لها من الإعراب جاءت على سبيل التفسير والإحتراس .

وبذلك يكون الشاعر قد أقام مقابلة بين سُنَّة السَّيف في خضاب الشَّعَر من جهة وبين سُنّة الدين والإسلام من جهة ثانية .

٢٥ ــ لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِهَا
لِلنّارِ يَوْماً ذَلِيلَ الصَّخْرِ والخَشَبِ

يقول الخطيب التبريزي : « نصب « يوماً » على أنّه مفعولٌ صحيح ، ولا يحتمل أن يكون ظرفاً ، والمعنى يوماً ذليلاً صخره وخَشَبُه ، والغَرَضُ

أنها أُحرقتْ فَذلّ صخرُها وخشبُها للنّار »[1] .

وعليه فالتقدير : « لقد تركتَ يا أميرَ المؤمنينَ يوماً ذليلَ الصخر والخشب »
« يوماً » مفعول به منصوب ، « ذليلَ » : نعت منصوب وهو مضاف
و « الصخر » مضاف إليه ، وكأن اليوم قد تركه الخليفة لينوب عنه في استباحة
البلدة وإذلال أوثانها وصلبانها . وقرن الجلابيب مع الدجى له دلالته على أن
اليوم كان في نظر الشاعر رجلاً كأن عليه الثياب .

وإذلال الصخر والخشب – كما يراه كاتب هذا التذوق – هو إشارة
إلى الأوثان والصلبان على الترتيب كمثل ما صرح به البيت العاشر (لم تخف
ما حلّ بالأوثان والصلب) . وواضح أن في إلقاء هذه طعمة للنيران بعد أن
كانت آلهة تعبد أو في المقامات العليا محلاً ومعنى الذُّلّ إذلالاً لها .

٢٦ – غَادَرْتَ فِيهَا بَهِيمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضُحىً
يَشُلُّهُ وَسْطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ

يقول الخطيب التبريزي : « غادرت » أي تركتَ . و « البهيم » أراد به
الليلَ الذي لا ضوءَ فيه ، و « يَشُلُّه » أي يطرده . يقول : كان ضوء النّار
يطرُد الليل وهو كالإصباح لتوقّده وتلهّبه ، وجمع بين التّرك والطّرْد ،

---

(١) شرح التبريزي ص ٥٣ .

وبين ظُلمةِ الليل والصُّبح ، فطابقَ في موضعين ، إلاّ أنَّ حقيقةَ المطابقة أن يقول : الليل والنهار والصبح والمساء ، والأوّلُ أيضاً جائز »[1] .

وتقديرُ البيت – كما يراه كاتب هذا التذوق : تركت الليل المُدْلَهِمّ في عمورية وهو في مثل الضحى توهجاً ولمعاناً بفعل قوة النيران . لقد كان يَطْرُدَ الليلَ الكثيرَ السّواد وَسْطَ البلدة « جيشٌ » من اللهب في مثل الصُّبح انبلاجاً ولمعاناً . أو كأنَّ جنود الظلام كان يطاردها جنودُ اللهب في وسط البلدة وكانت الغلبة لصالح جنود اللهب على جنود الليل المظلم بسبب ما أوتيته جنود اللهب من قوّة الإمداد من خَشَبٍ وصخر . وواضح أن المطابقة هنا هي بين جنود الظلام من جهة وبين جنود اللهب من جهة أخرى . وهي مطابقة يلعب اللونُ فيها الدورَ الأساسي في المقابلة والمجاذبة بين المنظرين . ولسنا نرى المطابقة في موضعين كمثل ما ذهب إليه الخطيب التبريزي . ومن ثمَّ فإنَّ الشّاعر كان متسقاً تمام الاتّساق مع منطقه . والجملة الاسمية حالية من الليل وكذلك الجملة الفعلية بعدها .

٢٧ – حَتّى كَأنَّ جَلابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ
عَنْ لَوْنِهـا وَكَأنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ

« جلابيب » الدّجى يريد جمع جلباب ، وهو القميص أو الرّداء ،

(١) ذاته وذاتها .

واستعاره هاهنا للدُّجى وهو جمع دُجْيَة ، والدُّجية : الظُلمة ، وقال قوم لا يُقال دُجية إلاّ لليل مع غيْم . والدُّجى جمع دُجية مثل زُبىً جمع زُبْيَة (حفرة الأسد ((التبريزي) .

استمرَّت الحرائق تطرد الظلام حتّى كأنَّ أردية الليل قد رغبت عن السواد إلى البياض والحمرة وحتّى كأنَّ الشمس لا تزال غير غائبة .

٢٨ — ضَوْءٌ مِنَ النّارِ والظّلْماءُ عاكِفَةٌ
وَظُلْمَـةٌ مِنْ دُخَانٍ في ضُحىً شَحِبِ

ضوء النار يُصَيِّر الليلَ نهاراً ، وظلمة الدخان تُصيّر الضّحى شَحِباً . وذكّر « الضّحى » والغالب عليها التأنيث. وتذكير ما لا يَعْقِل من هذا النوع كثير . و « شَحِب » كلمة قليلة ، وإنما الكلامُ شاحب أي متغيّر . والواو في قوله : « والظلماء عاكِفَةٌ » واو الحال (التبريزي) .

وتقدير الكلام : « ضوء من النار حال كانت العلماء عاكفة : موجود » . أو « البلدة ضوء من النار » . والمعنى : كانت البلدة مضيئة بفعل الحرائق ليلاً وكان ضحاها شاحباً بفعل سحب الدخان القائمة السوداء الصاعدة من ألسنة اللهب .

٢٩ — فالشّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أفَلَتْ
والشّمْسُ وَاجِبَـةٌ مِنْ ذَا وَلَمْ تَجِبِ

« من ذا » الأوَّل يعني به لهيبَ النار ، و « ذا » الثاني يريدَ به الدُّخان .
و « أفلتْ » غابَتْ ، ووجبت الشمس إذا سقطت في المغرب (التبريزي) .

كأن الشمس كانت طالعة وسط عمورية رغم أفولها وكأنَّ الشمس قد سقطت في (قرن المغرب) وهي لم يَحِنْ موعِدُ سقوطها . وفي التنزيل العظيم : [فإذا وجبت جنوبها] الحج : ٢٦ أي سقطت إلى الأرض بعد النحر .

٣٠ — تَصَرَّحَ الدَّهْرُ تَصْرِيحَ الغَمَامِ لَهَا
عَنْ يَوْمِ هَيْجَاءَ مِنْهَا طَاهِرٍ جُنُبِ

« تَصَرَّحَ » تفَعَّلَ من الصَّريح وهو الخالص . أي تكشف الدهر كما يتكشَّف الغمام عن السَّماء . ويعني بـ « طاهر جُنُب » أنَّ هذا اليومَ كان ما فُعِل فيه حلاً لأن الغزو إليه فهو طاهر من هذا الوجه ، وجُنُب لأنهم أخذوا السبي فوطئوه فاحتاجوا إلى الغُسل (التبريزي) .

والصورة التي أرادها الشاعر — كما يراها كاتب التذوق أنَّ هذه البلدة البكر التي ما « افترعتها كفُّ حادثة » (انظر البيت ١٧) والتي أعيت رياضتُها كسرى وصدَّت صدوداً عن أبي كَرِب (البيت ١٦) قد تكشَّف لها الدهر (بعد تبييت كثير) عن يومِ فَتْكٍ واستباحةِ أعراض : يوم هيجاء وهيجاء هنا « كرّ » في مقابل « إجفال » كما أذاعه المنجّمون كما في البيت ٦ . : يوم طاهرٍ جُنُبٍ . أمّا الطّهارة فلأن افتراعها من قِبَل اليوم

قد كان بعد عَقْدِ زواج إسلامي وبسُنّة الشرع الإسلامي ؛ وأمّا الجنابة فلأن الدماء قد أُسيلت ونزفت ولأن المطر لم ينزل ليغسل الأرض والطرُقات – كما سبق التنويه به في ذكر الحناء من دمه (البيت ٢٤) – أمّا صَرْفُ الجنابة عن اليوم إلى الناس فيه – كما ذهب إليه بعض المفسرين [١] فهو صَرْفٌ فيما يراه كاتب هذا التذوق تحكمي تعسفي ليس له من سَنَدٍ لغوي أو فني . وهذا التفسير يراه كاتب هذا النقد غير مسبوق إليه .

٣١ – لم تَطْلُعِ الشّمْسُ فيهِ يَوْمَ ذاكَ على
بـــانٍ بـــأهلٍ ولم تَغْرُبْ عـــلى عَزَبِ

أهل اللغة يختارون : بَنَى فلانٌ على أهله ، ويكرهون بنى بها ، وأصل ذلك أنهم كانوا إذا أعرسوا بنوا القبابَ على العرائس ، والمتعارف في كلامهم : بَنى على المرأة القُبّة . ولا يمنع القياس دخولَ الباء في هذا الموضع ، ويكون المعنى : بنى بأهله أي من أجلهم . ويقال رَجُل عَزَبٌ وامرأة عَزَبَة . وقال بعض العلماء باللغة : يقال للرجل عَزَب وللمرأة عَزَب ، ولا تدخل الهاء على المؤنث . ومعنى البيت : لم يُترك منهم مَنْ كان بَنَى بأهله لأنه قُتل ، ولم يَبْقَ في هؤلاء عَزَبٌ لأنهم وطئوا السّبيَ . (التبريزي) .

وكاتب هذا التذوق يرى أن سياق البيت يقتضي توحيد الضمائر . والضمائر في البيت تعود إلى أهل عمورية من فرسان البيزنطيين وأبطالهم . وكأن اليوم

(١) انظر شرح التبريزي ص ٥٥ الحاشية ملاحظة رقم ٤ .

الذي بان على عمورية قد أنهى علاقات الزوجية عند أهلها وإلى الأبد من كان منهم قد بان على أهله ومن كان منهم عزباً . أي لا زواج إلاّ زواج عمورية من قبل اليوم يوم الفتح أو فتح الفتوح . فمن كان منهم آوياً إلى فراشه مع أهله فإن ليلة الحرائق كانت ليلته الأخيرة في حياته ؛ ومن كان نهار اليوم التالي عَزَباً فإنّ نهارَ هذا اليوم وحدَه قد كان بقيّة حياته . أي أنّ الحرب لم تُبْقِ منهم ولم تَذَرْ . وكاتب هذا التذوق يستبعد أن يكون الشاعر قد عنى وطء السّبايا فما لذلك جاء الجيش المسلم وما كانت شراهته في مثل هذه الأمور بمثل هذه السرعة . وهذا التفسير يراه كاتب هذا التذوق غير مسبوق إليه .

٣٢ — مَا ربْعُ مَيّة مَعْمُوراً يُطيفُ بِهِ
غَيْلانُ أبهى رُبىً مِنْ رَبْعِها الخَرِبِ

يقول : ما رَبْعُ مَيّة المعمور الذي أكثر وصف حُسْنه ذو الرُّمَّة بأحسن رُبىً من هذا الرَّبع الخَرِب في عين مَنْ فتحها . غيلان بن عُقبة هو ذو الرُّمة . ونَصب « معموراً » على الحال ، والعامل في « معمور » فعل مُضْمَر . وأطاف في معنى الإلمام . وفي بيت الطائي حَذْفٌ يَدُلُّ عليه المعنى ، وذلك أنه ذكر ربْعَ مَيّة وليس لها بَهاءٌ إلاّ عند غيلان لمكان لهجِه بها ، فكأنّ المعنى : ما ربْعُ مَيّة في نفس غيلان أبهى من هذا الرَّبع الخَرِب في أعين المسلمين . والرُّبى جمع ربوة وهو المُرْتَفع من الأرض (التبريزي) .

والإشارة هنا إلى ذي الرُّمة في مثل أبياته :

عشية مـــالي حيلة غير أنني بلقط الحصى والخط في التّرب مولع
أخطّ وأمحو الخـــطّ ثم أعيـــده بكفي والغربـــان في الدار وقع

وهذه قرينة على أن دار ميّة قد كانت منتجع هوى ذي الرُّمة والغربان في الدار وقع . ولفظة يُطيف به ذات دلالة هامشية على أن الرَّبع ربما كان مغموراً بالماء حتى كان يمكن الطواف به دون مواقعته . وإذا كان هذا مقبولاً فإن موازنة تتحصل بين خرائب ربع مية والتصاق هذه الخرائب بموضع هوى الشاعر من جهة وبين خرائب ربع عمورية والتصاق هذه الخرائب بموضع هوى الخليفة حتى لكأن خرائب عمورية في عيني الخليفة كانت أبهى من مثيلتها في عيني العاشق الولهان الذي كان من ولهه يخط على الترب من غير ما وعي .

٣٣ ــ ولا الخدُودُ وقَدْ أُدْمِيْن مِنْ خَجَلٍ
أشهى إلى نـــاظِرٍ مِنْ خَدِّهـــا التَّرِبِ

لما شبهها بالمرأة وجعلها بكراً في بعض الأبيات حَسُن أن يستعير لها خَدّاً « والتَّرِب » الذي قد لصق بالتراب (التبريزي) .

ولم تكن خدودُ مية وقد توردت من الحياء في عيني ذي الرُّمة أشهى إلى الناظرين من خَدٍّ عمورية المعفر بالتراب .

٣٤ — سَمَاجَةً غَنِيَتْ مِنَّـا العُيُون بها
عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَا أَوْ مَنْظَرٍ عَجَبِ

« سماجة » قبح . يقول : خراب عمورية « سماجة عند أهلها ، وقد استغنت عيوننا عن كلّ حُسْنٍ بها لأنها تفوق كـلّ حُسْنٍ في عيون المسلمين الظافرين » (التبريزي) .

والمعنى — كما يراه كاتب هذا التذوق — هو أن هذه البكر التي كانت بَرْزَة الوجه في جرأة أقرب إلى السّماجة منها إلى الحياء العربي في مقابل تورّد خدود ميّة من الحياء والخجل حين تراها العيون قد متّعت نواظرنا عن كل حسن بدا أو عن كل منظر عجب — على غير ألفة منا في التمتع بخدود الجريئات السمجات . وهذا المعنى يراه كاتب هذا التذوق غير مسبوق إليه .

٣٥ — وحُسْنُ مُنْقَلِبٍ تَبْدُو عَوَاقِبُهُ
جَاءَتْ بَشَاشَتُهُ مِنْ سُوْءِ مُنْقَلَبِ

ويروى « تبقى عواقبه » يريد : حسن المنقلب كان للمسلمين ، وسوء المنقلب كان للكفار (التبريزي) .

وتقدير المعنى — كما يراه كاتب هذا التذوق هو : أننا قد حصلنا على

البشاشة والمسرّة من النظر إلى هذه البكر البرزة السمجة رغم ما كانته الموحيات تخوننا من سوء المنقلب . لقد كانت النتيجة حسن منقلب واضحة نتائجه القريبة والبعيدة .

٣٦ — لَوْ يَعْلَمُ الكُفْرُ كَمْ مِنْ أعْصُرٍ كَمَنَتْ
لَهُ العَوَاقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ والقُضُبِ

أي كانوا في تلك الأعصر غافلين عما حَلّ بهم من القتل والتخريب (التبريزي) .

أي أنّ العواقب تتربص بالكفر الدوائر كامنة مستترة بين ظُبى السيوف وأطراف القنا السُلُب (كما هو عجز البيت ٤٤) . أي أن الكفر لن يُفْلَت مهما بدا أنه قد طال عليه عصر النجاة والأمان . ولا خفاء أن الكمون له دلالة طاقة الوضع كما الكهربائية الساكنة كامنة في الأحجار — كمثل ما فهمه العرب في نظرية الكمون . وقد ثبت أنه لم يفلت من احتلال القسطنطينية على يد محمد الفاتح بعد ذلك . ولو علم الكفر مصائر الأمم لكان وفر على نفسه هذه المكابرة في التحدي والتحصين .

٣٧ — تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ ، مُنْتَقِمٍ
للهِ ، مُرْتَقِبٍ في اللهِ ، مُرْتَغِبِ

« المُرْتَقِب » الذي يجعل ما يرقبُه بين عينيه كأنه ينظر إليه . و « مرتغب » أي يرغب فيما يقربه إلى الله تعالى (التبريزي) .

أي أنّ جهود المعتصم وسهره الدائب وتخطيطه قريب المدى ، بعيده قد كانت رغبة في الله تعالى وطاعته .

٣٨ – وَمُطْعَمِ النّصْرِ لَمْ تَكْهَمْ أسِنّتُهُ
يَوْماً ولا حُجِبَتْ عَنْ رُوْحِ مُحْتَجِبِ

« مُطْعم النّصْر » يعني الممدوح ، وأصل هذه الكلمة في الصَّيدَ ، يقال فلان مُطعم الصَّيد إذا كان مرزوقاً منه أي يكون له طعاماً . جعل الممدوحَ متعوداً للنّصر كما يتعوَّدُ القانِصُ أن يُطْعَمَ من لحم الصيد . « لم تَكْهَم » أي لم تَنْبُ ، وأصل الكهام في السّيف وقد استعير لغيره (التبريزي) .

والتقدير – كما يراه كاتب هذا التذوق – أن الخليفةَ ميمونَ الطالع ومُطْعَم النّصر لم تنبُ أسنّتهُ يوماً ولا حجزها عن اخترام نفوس الأعداء دروعٌ أو مغافِرٌ أو حَلق الحديد السابغات . أي أنَّ هِمتَّه في الجهاد ورغبته في الله لم تضعف وأن إرادته في تقتيل من يريد نافذة ماضية . والإطعام هنا وردّه إلى الله تعالى هو توسم الآية القرآنية [. . . أنطعم من لا يشاء الله أطعمه] يس : ٤٧ .

٣٩ – لم يَغْزُ قَوْماً ولَمْ يَنْهَدْ إلى بَلَدٍ
إلاّ تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعُبِ

« لم يَنْهَد » أي لم ينهض إليه ، ومنه قولُهم : نهد ثَدْيُ الجارية ،

وتناهد القوم في السّفَر إذا تخارجوا النفقة بينهم ، وهو راجع إلى هذا ، ومنه تنهَّد الحَزِين كأنه يُنْهِض النّفَس (التبريزي) .

يضفي الشاعر على المعتصم بعض المزايا التي كان يتمتع به جَدُّه الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ومنها « النصر بالرعب مسيرة شهر » . قال صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، كان كل نبي يبعث في قومه وبعثت لكل أحمر وأسود ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طيبة وطهوراً ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأُعطيت جوامع الكلم »[1] . وهي مزايا تبلغ ذروتها في إقامة النسب بين عمورية وبدر في نهاية القصيدة .

٤٠ ــ لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ الوغَى لَغَدَا
مِنْ نَفْسِهِ وحْدهَا في جَحْفَلٍ لَجِبِ

« الجحفل » الجيش العظيم ، وقال قوم إنما قيل له جحفل لأنه يكثُر فيه ذواتُ الجحافل وهي للخيل مثل الشِّفاه ، ويقال رجل جحفل إذا كان ضخم الأمر سيِّداً ، يريد أنَّه وحده كأنَّه جيش لِعِظَم شأنه . و « اللَّجِب » الصَّخِب الكثيرُ الأصوات . و « الوغى » الحَرْبُ ، وأصله الصَّوت ، ثم سُمِّيَتِ الحربُ به (التبريزي) .

---

(١) ضياء الدين بن الاثير : المثل السائر (مطبعة نهضة مصر ، القاهرة : ١٩٥٩م) جـ ٤ ص ص ٤ ــ ٥ .

والمعنى – الذي يراه كاتب هذا التذوق – مُتَمِّم السِّياق في البيت السابق هو أن اسم المعتصم بالله له من الأثر في قلوب الأعداء هلعاً وخوفاً ورعباً ما يعادل فعل الجيش العظيم في الحرب التي قد حمى فيها الوطيس – كأنه نصر بالرعب مسيرة شهر . فكيف إذا التقى الجيش العظيم بقيادة المعتصم واسم المعتصم الذي فعله قد سبق الزحف ، فأي عدو يقوى على مصاولته ومناجزته ؟

٤١ – رمَى بِكَ اللهُ بُرْجَيْهَا فَهَدَّمَهَا
وَلَوْ رمَى بِكَ غيرُ اللهِ لَمْ يُصِبِ

أي كان قتالك في الله مُستنصِراً لدينه ، ولو كان قتالُك لغير دين الله لم تنصر عليهم ولم تصبهم (التبريزي) .

وما يراه كاتب هذا التذوق أن هذه مَزِيَّةٌ أخرى من المزايا التي أعطيها المعتصم كما كان أعطي جَدُّه صلوات الله وسلامه عليه وهي أن الرَّمي الذي كان في وقعة بدر كان الله هو الذي رمى على الحقيقة . قال تعالى [فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم وما رمَيْتَ إذ رمَيْتَ ولكنّ الله رمَى] سورة الأنفال : ١٧ .وكما أنّ الله تعالى يَمُنُّ على محمد صلى الله عليه وسلم أن المسلمين لم يقتلوا الكافرين ببدر بقوتهم ولكن الله قتلهم بنصرِ إياكم وما رميت يا محمد أعين القوم إذ رميت بالحصى لأن كفّاً من الحصى لا يملأ

عيون الجيش الكثير برمية بشر ولكن الله رمى بإيصال ذلك إليهم فعل ذلك ليقهر الكافرين [1] .

وهذه إشارة دالّة على ما كانته عمورية من التحصينات الفائقة والأبراج الشاهقة المشرفة على ما حواليها من أراض وما حُشِرَ فيها من الميرة والمؤن والعتاد الحربي وكثرة الجيوش والمدافعين . وأن لو كان غيرُ الله هو الذي رماها من علٍ (مَحلاً ومعنىً) ما كان أحَدٌ ليصيبَها فكيف بتهديمها؟

ومن هذه القرينة ، فإنّ كاتب هذا التذوق يرى أن تحليل الدكتور محمد مصطفى بدوي أنّ المعتصم هو الذي اخترع عمورية (في بناء الشاعر الفني) وأن البرجين هما إشارة إلى ثديي المرأة [2] ، لا يثبتُ على أساس . فالدلالة الهامشية للعلو تنفي أن يكون الثديان في موضع الإعجاز للنائل ، ثم لم تَجْرِ العادَةُ أن « يُهدَّم » الباني على المرأة « ثدْييها » . فإذا ما قارنّا ذلك بصورة اليوم الذي افترع البلدة في هيجاء وكان طاهراً جُنُباً وأن الأماني انصرفت

---

(1) انظر تفسير الجلالين للآيــة (مطبوعات دار مروان ــ دار العربية) ص ٢٣٦ .

(2) Journal of Arabic Literature فاتني أن أحضر العدد معي الى عمــان ولم أستطع العثور عليه في مكتباتها . وقد سبق الى ذكر ذلك من غير ما شمولية التدليل على صحته استاذنا الدكتور شوقي ضيف الذي قال : « ... عزة عمورية وما دهاها ، تلك السيدة الفاتنة التي كانت تدل على الملوك والاكاسرة ، حتى أتاها المعتصم فأقبلت عليه طائعــة ذليلة » . الفن ومذاهبه في الشعر العربي (دار المعارف . القاهرة : ١٩٦٩م) ص ٢٥٩ .

حُفّلاً معسولة الحَلَب – تشبيهاً للمنى بثديي المرأة وإخصاب لبن الأم فيها ، والدخول في شهر العسل لما سبق وأسلفنا ؛ يتبين فَرْقَ ما يبنيه الدكتور محمد مصطفى بدوي من اجتهاد وما حاولته هذه الدراسة المتواضعة (ولكل مجتهد نصيب) . ويذكر الطبري أن سور عمورية قد انهدم ما بين بُرْجين[1] . بما يفسر قول الشاعر .

٤٢ – مِنْ بَعْدِ مَا أشَّبُوهَا وَاثِقِينَ بِهَا
وَاللهُ مِفْتَاحُ بَابِ المَعْقِلِ الأشِبِ

« أشّبوها » صعّبوا أمرَها ، وحقيقته لَفّوا حولَها الجُنْدَ ، من قولهم تأشّبت الغَيْضَة التفّت : أي منعوها بالرّماح فصارت كالشجر الملتفّ بالجمع الكثير . ويروى « آمنين بها » قد وثقوا بمنَعتَها . ويروى « المُقفَلِ الأشِبِ » . (التبريزي) .

ويكون التقدير أنّ التحصينات الكثيرة التي أقاموها حول البلدة قد أعطتهم بعض شعور بالثقة وفاتهم أن الله تعالى بيده مقاليد كل شيء ومفاتيح مغاليقه . وهذا النص يطرد طرداً واضحاً تَصوُّر أنّ المعتصم هو الذي افترع عمورية . ولو أمكن تصوُّر أيّ رمزية أو تورية في لفظة « مفتاح » كما ذهب إلى ذلك الدكتور محمد مصطفى بدوي – فإن ردّ ذلك إلى الله تعالى لم يُبْقِ

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٦٥ .

لمثل هذا التصور مكاناً البتّة . ولعلّ الدكتور بدوي قد قاس هذه اللفظة « المفتاح » على مثيلتها في اللغة الانجليزية حيث قالوا « إنّ المرأة كنز مفتاحه عند الرّجل »[1] .

٤٣ – وقال ذُو أمْرِهِمْ لا مَرْتَعٌ صددٌ
للسّارِحِينَ ولَيْسَ الوِرْدُ مِنْ كَثَبِ

ويروى « أمَم » مَوْضع « صدَد » و « ذو أمرهم » رئيسُهم الذي يأتمرون له ، قال لهم : لا تخافوا هؤلاء فإنّهم لا يجدون مَرْتعاً ولا مَسْرحاً لدوابّهم ، ولا ماء بالقُرْبِ يردونه ، فإذا ضاق بهم الأمرُ انصرفوا عنكم . و « المَرْتَع » الموضِعُ الذي ترتع فيه الرّعية . و « أمَمٌ » ؛ : ما بين القريب والبعيد ، وربّما قالوا « أمَم » قَريب ، وصدَدٌ مثلُه : و « الكَثَب » القُرْبُ . (التبريزي) .

وقال صاحب أمرهم والمتنفّذُ فيهم : إنّ استراتيجية المكان تجعل منه غير ذات صَبْرٍ على الإقامة من جانب الجيش المسلم فلا مرتع صدد ولا الماء بالمتوفر[2] .

---

(١) كما ورد في : Three Jacobian Tragedies

(٢) انظر تفصيلات المعركة والحصار في : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : **تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (دار** المعارف بمصر ١٩٦٨م) جـ ٩ ص ٥٧ وما بعدها .

٤٤ ــ أمَانِياً سَلَبَتْهُمْ نُجْحَ هَاجِسِهَا
ظُبَى السّيُوفِ وأطْرافُ القَنَا السُّلُبِ

يقول : كان ذلك التقدير أمانياً سلبتهم تصديقَها ظُبى السيوف أي حَدّها . وأكثر ما تستعمل « الأماني » مشدّدة . و « الهاجِسُ » ما يَهْجَسُ في الصّدر من فِكْر . « والقَنا السُّلُب » يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون جَمْع سَلُوب ، كأنّه يَسْلُب النّاس أموالَهم ، والآخر أن يكون جَمْع سَلَبٍ وهو الطويل ، يقال رُمْحٌ سَلَبٌ . (التبريزي) .

أي أنّ هذه الأمانيّ التي راودتهم سلبَتها أسنّةُ السيوف وأطرافُ الرماح الطويلة من أن تنجح مقاصِدُها . وكاتب هذا التذوق أميل إلى الاعتقاد أن السُّلُب هي الطويلة في هذا السياق . وتلك إشارة إلى نوعية من السّلاح وإعداده بطريقة أخذت بعين الاعتبار نوعية التحصين ونجح المقصد في اقتحامه .

٤٥ ــ إنّ الحِمَامَيْنِ مِنْ بِيْضٍ ومِنْ سُمُرٍ
دلْوا الحَيَاتَيْنِ مِنْ مَاءٍ ومِنْ عُشُبِ

يقول الخطيب التبريزي في شرح البيت : لا تُنال لَذّة الأكل والشّرب إلاّ بالرّماح والسّيوف ، وضرب لهذا مثلاً فقال : هُما دَلْوا الحياتين ، يعني أنّ الحِمامَين بالبيض والسُّمر دلْوا الحياتين : الحياة بالماء والحياة بالنبات ، إذ كان لا بُدّ منهما أو مما يُحيا بهما ، فكأنهما يستقيان هاتين

كما يستقي الدلوان الماء . والأكثر في « السُّمر » تسكين الميم ، إلاّ أن يُضْطرّ شاعِرٌ فيقول السُّمُر جمع أسمر ، والوُرُق في جمع أورق ، والشُّقر في جمع أشقر ، فأمّا العُشْبُ والعُشُبُ فإنهم يجترئون في مثل هذا على الحركةِ والسّكون [١] .

ويقول في تفسير ذلك الدكتور شوقي ضيف : « فقد جَعَل للحِمام أو للموت لونين يختلفان باختلاف السمرة والبياض في ألوان القنا والسيوف ، واستمر فعبّر عن الحياة بلونين يقابلان هذين اللونين السابقين ، وهما لونا الماء والعشب ، وكل ذلك ليرمز عن أسباب الحياة والموت » [٢] .

وكاتب هذا التذوق يرى أنّ الموت بالسيوف أو الموت بالرماح أو الاستشهاد في سبيل الله سبب كي تحتفي السماء والأرض بالنّصر . وفرحة السماء تكون بأن تجود بالماء والغيث ، وفرحة الأرض أن تجود بالعشب والنبات . ففرحة السماء الغيث والماء ، وفرحة الأرض العشب والنبات . وهي صورة نقلها الشاعر من قرينة موت فرعون وجنوده إلى الضِد منها حين يكون الموت في سبيل الله وابتغاء مرضاته — كما سبق التنويه به . وهي صورة عربية إسلامية من صميم النصوص الإسلامية . وما ذكره الدكتور شوقي ضيف في

---

(١) ص ٦١ .
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٤٩ .

هذه القرينة يراه كاتب هذا التذوق تحميلاً للنصوص أكثر من طاقتها و « مصادرة على المطلوب » منها .

وأمّا ذكرِ دلويْ الحياتين ، فيها إشارة تاريخية إلى استخدامات « البكرات » في نقل الماء والعشب [1] من الوديان والمنخفضات التي يبدو أن عمورية كانت تنوف عنها إلى شاهق إلى المرتفعات التي كان المسلمون قد نجحوا في السيطرة عليها وقت الهجوم . وواضح من السّياق أن الهجوم قد كلفهم (الجيش المسلم) غالياً في صرعى السيوف وصرعى الرماح وفي نقل الماء ونقل العشب والميرة والأغذية والأعتدة [2] . يفسّر ذلك كله أجمل تفسير ويجمله أحسن إجمال قول الشاعر قبيل خاتمة القصيدة (البيت ٦٨) :

بَصُرْتَ بالرّاحةِ الكبرى فلم ترَها تُنالُ إلاّ على جِسْرٍ من التَعَبِ

إنّ « جسر التعب » الذي حار في تفسيره الكثيرون يأتي في انسجام تام مع حجم التضحيات التي قدّمها الجيش المسلم وهو يجتاح هذه البلدة المُحصّنة . ومن ثم يكون التوازي تاماً بين الحِمامين من بيض ومن سمر من جهة ، وبين دلوي الحياتين من ماء ومن عشب من جهة ثانية أولاً ، وبين الحرّ من التعب من جهة وبين الراحة الكبرى من جهة ثانية — ثانياً .

---

(١) انظر : تفصيلات الفتح في تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص‌ص ٦٠–٦١.
(٢) المصدر ذاته ص ٧٠ .

٤٦ — لَبّيْتَ صوتاً زِبَطْرِيّاً [1] هَرقتَ لَهُ
كَأس الكَرى ورُضاب الخُرَّدِ العُرُبِ

« زِبَطْري » منسوبٌ إلى زِبَطْرة ، وهي بلد فتحه الرّوم ، فبلغ المعتصم فيما قيل أنّ امرأةً قالت في ذلك اليوم وهي مَسْبيّة : وامعتصماه ! فنُقِل إليه ذلك الحديثُ وفي يدِه قَدحٌ يريد أن يشرب ما فيه ، فوضعه وأمر بأن يُحْفَظ ، فلمّا رجع من فتح عموريّة شَرِب . و « هَرَقْتَ » تستعمل في المياه وما جرى مجراها . و « الخُرَّد » الحييّات ، وإنما قالوا في الواحدة خَرِيدة وخَريد . و « العُرُب » جمع عَروب وهي المتحبّبة إلى زوجها . (التبريزي) .

لَبَّيْتَ صوت استغاثة المرأة المسلمة من زِبَطْرة فسكبتَ ماء كأس النعاس ورغبت عن تقبيل الحييات المتحببات . أي رغِبْتَ عن النوم وعن الحِسان .

٤٧ — عَدَاكَ حَرُّ الثّغُورِ المُسْتَضامَةِ عَنْ
بَرْدِ الثّغُورِ ، وعَنْ سَلْسَالِهـا الحَصِبِ

« الثُّغور » الأول جَمْعُ ثَغْر العدو ، وهو الموضع الذي يُخاف أن

---

(١) انظر : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ص ٥٥ — ٥٦ .

يأتي منه ، و « الثغور » الثانية مِنْ ثَغْرِ الإنسان . وأصل « السّلسال » الماءُ الصّافي السهل الدخول في الحَلْق ، ويجب أن يكون أصله من الماء الذي يجري مستطيلاً على وجه الأرض ، كأنّه مأخوذٌ من سِلْسلة البَرْق وسلسلة الحديد ، لأنّ الماء الجاري أخفّ من الماء الرّاكد . و « الحَصَبُ » الذي فيه الحَصْباءُ وهو صِغارُ الحَصى ، وإنما أراد بالسّلسال الرّيق ، وجعله حَصِباً لأنّ فيه الأسنان . و « عَدَاك » أي صَرَفك عن بَرْدِ هذا الرّيق في ثغور الحسان ما في قلبك من أمرِ الثغور التي أبيحت وتمكّنَ العَدوّ منها . وفي هذا البيت مُطابَقَةٌ ومجانسة فالمطابقة بالحَرّ والبَرْد ، والمُجانَسةُ بالثّغُورِ والثّغور . (التبريزي) .

وحَرّ الثغور المستضامة كناية عن حرارة القهر وضيم الاحتلال . وهي صورة ما كان أحلاها لِتُنْقَش فوق رأس كل عربي ومسلم ليحسن اختيار مواقع التحديات عن الركون إلى حياة الدّعة والترف . وهي صورة ما كان أحلاها لِتُنْقَش فوق جباه الجيوش الإسلامية ليعلموا أن حَرّ الثغور المُستضامة أولى بالتوجه والمجابهة من فرق الاستقبالات والتشريفات وضرب الآلات الموسيقية واستعراضات وبروتوكولات وتضييع أوقات في غير مواقع امتحان الكبرياء الإسلامية ؛ ليس في عصرنا هذا الحاضر الآن ، ولكن في صميم الأجيال الشّابّة المقبلة في السنين الآتيات حتى يَرِث الله تعالى الأرض ومَن عليها . وفرق ما بين عمورية وزِبَطْرة وبغداد وسامراء أكبر من الفرق ما بين أرض الإسراء والمعراج وبين عواصم العرب جميعاً ؛ ومع ذلك فقد

كانت استجابة المعتصم على جِسْرٍ من التعب كي يَعْبُرَ إلى الرّاحة الكبرى وهي استئصال عمود الشرك وفي ظروف بالغة الصعوبة وفي إمكانيات ضعيفة شيئاً ؛ واستجابة هذه العواصم الشيء الذي يعلمه كل من ابتلي بأعمال يهود وأخبار فسادهم وإفسادهم شيئاً آخر .

٤٨ ــ أجَبْتَهُ مُعْلِناً بِالسّيْفِ مُنْصَلِتاً
ولَوْ أجَبْتَ بِغَيْرِ السّيْفِ لَمْ تُجِبِ

يروى « مُعْلَماً » وإنما يُعْلَم مَن هوَ مَعروفٌ بالشّجاعَة فيَجْعَلُ لنفسه عَلامةً يُعْرَفُ بها في الحَرْب . ويقال : انصلَتَ في الأمر إذا مَضى فيه ، والأجودُ أن يكون الإنصلاتُ هاهنا للرّجُل ، ولا يمتنِعُ أن يكون للسّيف ، والسّيْفُ الصَّلتُ : المُتجرّد . وقوله : « لو أجبتَ بغير السّيْفِ لم تُجِبِ » : أي من أجاب إذا لم ينتفع بجوابه فكأنّه ما أجاب . (التبريزي) .

أجَبْتَ صوتَ المستغيثة الزّبطرية من أهل الإسلام بالسّيف الماضي الحديدة ولو كانت إجابَتُك بغير السّيفِ (كالمبادرات السلمية ، والزيارات المكوكية ، والشكاوى إلى منابر الأمم المتحدة وهيئاتها الرسمية ــ كما هو عالمنا الإسلامي المعاصر) فكأنك لم تجب ولم تُلبِّ . وكاتب هذا التذوق يختار الإنصلات للسيف وليس للخليفة لأن الشاعر حريص أن يُقَيّدَ السّيف باللمعان والبياض وأن يُقيد الأرماح بالشهابية واللمعان وأن تكون « بين

الحميسين » في مواقع الضرب والمناجزة والمصاولة . وواضح كثرة الجناسات اللفظية في هذا البيت بما يعكس غرام الشّاعر بذلك وحرصه على أن يكون اللسان في مخارج الحروف كأنه في السّلسال الحَصِب .

٤٩ – حَتّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشّرْكِ مُنْعَفِراً
وَلَمْ تُعَرِّجْ عَلى الأوْتَادِ والطُّنُبِ

ويروى « منقعراً » من قوله تعالى : «كأنهم أعجاز نخل « منقعر » . و « المُنْعَفِر » الملتصق بالتّراب وهو العَفْر ، وكان البيتُ يبنى على عَمَد وأوتاد وأطناب ، فالعمودُ أرفعُها وأعظمُها . يقول : عمدتَ لأعظمِ شأن الرّوم ولم تُعَرّج على ما صَغُر من الأمور . والمعنى أنّه فتح عمورية ولم يقتنع بالقُرى وسَبْيِ مَنْ فيها . ولا يُلْتَفَتُ إلى قول مَن قال إنه أراد أنه سافَرَ مُبارزاً ولم يكتنَّ بالخِيَمْ . قال المرزوقي : ما أظن صحبه[1] التوفيق في هذا التفسير ، ولا أدري كيف استجازَ من طريق العُرْف والعادة أن يكون المعتصمُ مضى من مَقَرّه غازياً إلى عمورية ولم يكتنَّ بالخيم ؟ ومراد أبي تمام في هذا : أنك من بيت الشّرك قصدتَ عموده ، وما كان قِوامُه به ، فزعزعْتَه ونزعْتَه ، ولم يعطِف على جوانبه ، أي قَصَدْتَ قَصَبَةَ الكُفْرِ دونَ القُرى والرَّساتيق[2] .

---

(١) الضمير هنا عائد الى أبي بكر الصولي .
(٢) شرح التبريزي ص ٦٤ .

وكاتب هذا التذوق يرى أن لفظة « منعفر » هي الأرجح أن تكون في السياق ، وذلك لأنّ الشّاعر كان قد ركّز الأبصار على العَفْرِ الذي التصق بخراب البلدة ، وذلك في مثل قوله « من ريعها الخَرِب » (البيت ٣٢). ثم إنّ لفظة « منقعر » لها دلالة قرآنية هامشية تتعارض والصورة التي يريدها الشّاعر . إنّ سياق آيات النخل المنقعر يدل على أنّ قوم عاد كانوا قد أهلكوا في وقت ظلّت فيه مساكنهم قائمة بدليل قوله تعالى [فأصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم] الأحقاف : ٢٥ .

وإذا كان هذا مقبولاً ، فإن ذلك يؤكد أنّ عمود الشرك هنا قد ورد على المجاز . يُعَزّز ذلك قولُه « ولم تُعَرّج على الأوتادِ والطُّنُب » . والتعريج لا يكون إلاّ من مكان بعيد . يقول في ذلك أبو القاسم الآمدي في صدد حديثه عن التعريج الذي يكون في الوقوف على الديار والأطلال والآثار : « العرب لا تقصد الديار للوقوف عليها ، وإنما تجتاز بها ، فإن كانت واقعة على سنن طريقهم قال الذي له أرَبٌ في الوقوف لصاحبه أو أصحابه : قِفْ ، وقفا ، وقفوا . ولم تكن على سنَن الطريق قال : عُوجا ، وعَرّجا ، وعوجوا ، وعرجوا . . . »[1] ولو كان ثَمّة عمودَ الخيمة وأوتادها وطُنُبَها يعني الشّاعر فما كانت لفظة « تُعَرّج » لتخدمه في هذه القرينة ، وفي هذا السّياق .

---

(١) ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي : الموازنة بين شعري أبي تمام والبحتري . تحقيق السيد احمد صقر (دار المعارف : القاهرة ١٩٦١م) جـ ١ ص ٤٠٩ .

ومما تدلّ عليه الحروب في العصور الوسيطة في مثل هذه العواصم والثغور المُحصَّنة أنّ كلّ قرية مُحَصَّنة تُغلق أسوارها وبواباتِها في وجوه الغُزاة بحيث أن الجيش الغازي يتجاوز عن عشرات القرى المُحَصَّنة في أرض العدو ويتركها وراء ظهره وصولاً إلى مركز ثقل الدَّولة وقصبتها . وهو أمر قد وَضَّحه أبو تمام حيث تَحَدَّث عن عمورية « أُمّ القرى والتحصينات » حين قال :

أمٌّ لَهُمْ رَجَوْا أنْ تُفْتَدى جعلوا فداءها كُلّ أُمٍّ منهمُ وأبِ
(البيت : ١٥)

ويتحدّث المؤرخون عن حوادث يَنْقَضّ فيها أهل هذه القرى المُحصَّنة على الجيش الغازي حين يُصيب منه غِرَّة فيُكَلّف ذلك الجيشَ الغازي غالياً . ولذلك فإنّ كاتب هذا التذوق يُرَجِّح أن يكون المعتصمُ حتى يأمَن عدم التعرض لكوارث من هذا القبيل كان رَتّب إقامة جِسْرٍ متحرك من فعاليات القتال على مستوى الهجوم والدوريات والإمداد بـل وعَرْضِ « العضلات » على طول طريق الهجوم ذهاباً وإياباً [1] . وهو ما يفسِّره أجمل تفسير وأكثره تكثيفاً قوله في البيت (٦٨) :

---

(١) يقول الطبري : « فانصرف وانصرف المعتصم يريد الثغور ، وذلك انه بلغه ان ملك الروم يريد الخروج في اثره ، أو يريد التعبث بالعسكر ، فمضى في طريق الجادة مرحلة ، ثم رجع الى عمورية ، وأمر الناس بالرجوع ، ثم عدل عن طريق الجادة الى طريق وادي الجور » ص ٦٩ .

بَصُرتَ بالرَّاحةِ الكبرى فلم تَرها   تُنالُ إلاّ على جِسْرٍ من التَّعَبِ

ثم أنْ لو كان من هذه القرى الصغيرة المتناثرة غيرُ « الضموز » لكان المعتصم حتماً قد عرَّج على « الأوتاد والطُّنُب » التي ليست على طريق الهجوم والإياب وكان له معها شأنٌ غير الاستصغار .

٥٠ — لمّا رأى الحَرْبَ رأي العَيْنِ تُوْفَلِسٌ
والحَرْبُ مُشْتَقَّـةُ المَعْنى مِن الحَرَبِ

يستعمل « الحَرَب » في معنى الغضب وفي معنى ذهاب المال (التبريزي) .
وقال الصولي هذا من قول النابغة الجعدي :

وتستلب الدّهم التي كان رَيُّها   ضنيناً بها والحَرْبُ فيها الحرائِبُ[1]

وواضح غرام الشاعر بالجناس في قوله « الحَرْبَ » و « الحُرْبُ » و « الحَرَب » ، ثم « رأى » و « رأي » وفي « العيْن » و « المعنى » بما يجعل مخارج الحروف ذات تكرار يمنح انسياباً وسلاسة .

٥١ — غَدا يُصَرّفُ بالأمْوَالِ جِرْيَتَهـا
فَعَزَّهُ البَحْـرُ ذو التّيّـارِ والحَدَبِ

(١) انظر : شرح التبريزي الحاشية ملاحظة ٣ ص ٦٤ .

« الحَدَبُ » ارتفاع الماء تارةً وانخفاضه أخرى . يقول : لما رأى توفلس الحرب تجري إليه بالرّجال كما تجري السّيولُ بذلَ للمعتصمِ أموالاً ليرجع عنه فعزّه أي غلبَه ، يريد المعتصمَ وجيشَه . و « التيّار » معظمُ الماء ، وربما قِيلَ « التيار » المَوْج وهو مأخوذ من أنه يجيء تارةً بعد تارة . ومن روى « جِزْيتها » بالزاي فقد صَحّف لأنه لو بَذَلَ الجزيةَ لأخذت منه ، وإنما بذل مالاً لا على سبيل الجزية (التبريزي) .

البيت السّابقُ لهذا البيت يُوحي بأنّ تُوْفِلَسَ وقد رأى استعداداتِ الحرب لدى المعتصم قد أصبحت أمراً واقعاً بدأ يُحِسُّ بهاجس الهزيمة والخسران . وإزاء هذا الواقع الجديد فحتماً كان قد بذل الكثير من الأموال على سبيل الهدايا والاستلطاف وكسر سَوْرَةِ الغضب وَحِدّة التصميم. ولم يُجْدِ هذا الإغراءُ مع المعتصم الذي كان البَحْرَ ذا التيّار والحَدَب . وماذا يمكن أن يُهدى إلى البحر الزاخر فيثنيه عن الصّخب والجيشان ؟ وهو أمْرٌ يُفَسّر قول الشّاعر مستطرداً في البيت (٤٨) :

أجَبْتَهُ مُعْلِناً بالسّيفِ مُنْصَلِتاً ولَوْ أجَبْتَ بغَيْرِ السّيْفِ لم تجِبِ

ولو لم تكن الخيارات قد كثرت لدى المعتصم بشكل يحمل على الإغراء لما وجدنا الشاعر يستطرد بمثل هذه الاستطالة في القول والجراءة عليه :

« ولَوْ أجَبْتَ بغَيْرِ السّيْفِ لم تُجِبِ »

وإنها لجراءة تحمل الخليفة على الإكبار لموقف الشاعر ، وانحياشه (أي الشّاعر) إلى جانب اختيار السّلاحَ وترجيح أولوية القتال ، مع رأي في القائد وقراراته .

وإشارة الشاعر إلى التيّار والحَدَب قرينة دالّة على ما كانَهُ الخليفةُ المعتصم من غَضَبٍ لله ومحارمه في الأرض ورعايا الدولة الإسلامية . ولا نَظُنّ أنّ التيارَ والحدب هما الإشارة إلى جيش المعتصم كما قد صرّح بذلك الخطيب التبريزي ؛ بل إنّ التيّار والحدب هما جَيَشان الغضب لدى الخليفة يفسّره قول أبي تمام في بيت متقدم (البيت ٤٦) :

لَبّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيّاً هَرَقْتَ لَهُ   كأسَ الكَرَى وَرُضَاب الخُرَّدِ العُرُبِ

ويعزّز ذلك حديثُ الشّاعر في الأبيات اللاحقة عن المعتصم وحدَه بضمير الإفراد دون إشراك الجيش في الحوادث والمواقف .

٥٢ – هَيْهَاتَ ! زُعْزِعَتِ الأرْضُ الوقُورُ به
عَنْ غَزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غَـــزْوِ مُكْتَسِبِ

« هيهات » يُوقَفُ عليها بالهاء إذا فتحتها ، وإذا كَسَرتَها يُوقَفُ عليها بالتاء ، ويجوز « هيهاتاً » و « هيهات » وتبدل الهمزةُ من الهاء فيقال « أيْهاتَ » ، ويقال « أيْها » أيضاً . و « زُعْزِعَتْ » حُرّكَتْ حركةً عنيفة ، والهاء في « يه » راجعةٌ على تُوفَلِس . يقول : زُعْزِعَتْ الأرضُ

به عن غَزْوِ هذا الملك الذي هو مُحْتَسِبٌ للأجر لا مُكتسبٌ للمال ، فكأنَّ زعزعة الأرض كان سببُها غزوَ هذا السّلطان ، كما يقال مرض فلانٌ عن أكل الرُّطَب ، أي كان أكلُ الرُطَبِ سببَ مرضِه . و « عن » في هذا الموضع تؤدي معنى غيرها من حروف الخفض ، فلو قيل في الكلام : زُعْزِعت الأرضُ به من أجل الغزو أو للغزو أو بالغزو لاحتمل ذلك كلّه . وما بَعْدَ هذا البيت بيانٌ له وشَرْحٌ لمعناه . (التبريزي) .

وقرينةُ هذا البيت — كما يراها كاتب هذا التذوق — هي طول الطريق من مركز الخلافة والتجييش العسكري حتى أسوار عمورية . ويبدو أنَّ هذه الطريق كانت وسط مناطق زراعية بعيدة عن مواطن الكَرِّ والفَرِّ يفسِّر ذلك قولُه « الأرض الوقور » . و « الوقور » في هذا البيت في مقابل « البحر ذو التيّار والحَدَب » في البيت السّابق . والزعزعة كانت استهجانَ هذه الأرض لمرور المعتصم منها غاضباً (١) . فكأنَّ هذا الاستهجانَ قد رَجَّها رَجَةَ فزَع وخوف . وزاد هذه الأرضُ هَلَعاً أن الغزو احتساب لثوابِ اللهِ تعالى ونيلاً لمرضاته لا غزوَ الذي يرضيه القليل من السَّلَبِ ويَقْفُلُ راجعاً . أي أنَّ الصِدام حاصل بمنتهى القوة والتصميم . ويرى كاتب هذا

(١) يذكر الطبري أن المعتصم كان قد اتخذ مجانيق كبارا على قدر ارتفاع السور ، يسع كل منجنيق منها اربعة رجال ، وجعلها على كراسي تحتها عجل ... وعمل دبابات كبارا تسع كل دبابة عشرة رجال ، وأحكمها على أن يدحرجها على الجلود المملوءة ترابا حتى يمتلىء الخندق . ص ٦٥ .

التذوق أنَّ «عن» هنا هي في موضع بسبب — كما ذَهَبَ إلى ذلك الخطيبُ التبريزي .

٥٣ — لَمْ يُنْفِقِ الذَّهَبَ المُرْبي بكَثْرَتِهِ
عَلى الحَصى وَبِهِ فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ

يخاطب توفِلس ، يقول : لم يُنْفِقِ الذَّهَبَ الكثيرَ الذي هو أكثرَ مِن الحصى رغبةً فيما تبذلُهُ مِنَ الذَّهب ، بل لينتقم منك ، ويقابِلَكَ بسوء صنيعك أو تُسْلِمِ و «المُرْبي» الزائد ، فقال : أربى عليه إذا زاد عليه . (التبريزي) .

أيِّ أنَّ فتَح عمورية كان مبعثه الغيرةُ لله والكبرياءُ الإسلامية وما كان الطَّمَع في الذَّهب والذَّهب عنده في دار الخلافة عدد الحصى وزيادة .

٥٤ — إنَّ الأسُودَ أُسُود الغِيلِ هِمَّتُهَا
يَوْمَ الكَرِيهَةِ في المَسْلُوبِ لا السَّلَبِ

جَعَل الممدوح غنيّاً غير مُحتاجٍ إلى المال فيُخدع به ليَكُفَّ عن القتال . و «الكريهة» الشديدة من كل شيء ، والمراد بها الحربُ هنا (التبريزي) .

وتشبيه الشاعر المعتصم وغيره من خلفاء الإسلام أُسُودِ الغيل[1] وأنّ هِمّتهم في المَسْلوبِ لا السّلَبِ يُفَسّرُ المُقَدّماتِ الأولى لهذه المجموعة من الأبيات ويختمها بختم منطقي ما كان أقواه وأبعد أغواره . وهو من حيث قوة الإحكام في مثل قوله (البيت العاشر) :

لَوْ بيّنَتْ قَطُّ أمراً قبلَ مَوْقِعِهِ   لم تُخْفِ ما حلّ بالأوثانِ والصُّلُبِ

وبذلك تكون الأرض الوقور الملتفة الأشجار قد زعزعها ما يقابلُ غَضب هذا الأسد وصوتَه صوت الغَضب والهَيَجان . وما كان الأسدُ الغاضب هِمّتُه في متاع المهاجَم (بفتح الجيم) وماله دون نفسه . بل ليس غير نفسه هي المُطْلَب . وهذا يُوضّح ما سبق وقدمناه من أنّ قول الخطيب التبريزي في تفسير البيت (٣١) : « ولم يَبْق في هؤلاء عَزبٌ لأنهم وطئوا السّبي » ليس هو الذي قد قصده الشاعر حتماً . إنّ هِمّة الفاتحين كانت حيثُ الكبرياءُ الإسلامية يتطاول عليها وما كانت هِمّةُ الفاتحين في وطء السّبي في خلال اثنتي عَشرة ساعة من ميقات المعركة . بل المعنى أنه لم يبق من جيش البيزنطيين متزوج وعَزبٌ . أي أنّ الدائرة قد دارت عليهم وطحنتهم المعركة بالكامل . وهو أمر نَوّه به قول الشاعر في البيت ٦٠ : (يا رُبَّ حَوْبَاء لمّا اجْتُثَّ دابرهم . . . البيت) . والاجتثاث قد كان كاملاً .

---

(١) الغيل هو الشجر الملتف (انظر : شرح التبريزي ص ٥٦) .

وقول الشاعر : « الأسود » و « وأسود » و « المسلوب » و « السّلب » هو في التركيز على إعادة ذات الحروف لتكون مخارج الحروف أقرب إلى السلاسة .

٥٥ – وَلّى وَقَدْ أَلْجَمَ الخَطّيُّ مَنْطِقَهُ
بِسَكْتَةٍ تَحْتَهَا الأَحْشَاءُ في صَخَبِ

« ولّى » يعني تُوفَلس ، و « الخَطّيُّ » الرّمح منسوبٌ إلى الخَطّ وهو سِيْفُ عُمَان ، وقال قوم : كلّ سَيْف بحر خَطٌّ . « وألجمه » أي كان له كاللجام . و « الصَّخَب » أصله كثْرَة الكلام في الغضب ، وكثر ذلك حتى قالوا حمارٌ صَخِبٌ ، أي كثير النّهاق ، وأراد بالصَّخَبِ في البيت وَجيبَ القلب من الفزع ، ولا يُلتفت إلى ما ذُكِرَ في معناه سوى هذا [1] . رأيتُ بعضَهم يقول ليس للسكتةِ تحت ، يَعيبُه بقوله « تحتها الأحشاءُ » وهذا جهلٌ منه ، لأن الإشارة إلى آلة الكلام ، والسكوت والإلجام لا يتأتّى

---

(١) يشير هنا الى قول الصولي ، فقد قال في شرحه : يقول من خوف الرماح لا يطيق الكلام ولكن احشاءه تصطخب ، يريد أن الفزع ربما أحدث صاحبه ، فخرجت أرياح بطنه . وقد أورد ابن المستوفي كلام الصولي هذا وعقّب عليه بقوله : لو قطع خسره عند قوله « تصطخب » أتى بالمعنى ، اما الباقي فزيادة قبيحة لم يَردها أبو تمام ولا دل عليها شعره ... والوجه أن يكون المعنى : ألجمه الخوف بلجام من السكوت ، لكنه قلبه يَجب ، وأحشاءه تخفق ، حتى صار لهما كالجلبة . (انظر : شرح التبريزي . الحاشية . ملاحظة رقم ١ ص ٦٧) .

إلاّ فيها ، وإذا كان كذلك فذِكْرُ المنطق والسكوتِ يُشار به إلى الفم ، وكذلك الضمير المتصل بـِ « تحت » يُرْجَعُ إليه في الحقيقة . (التبريزي) .

وبذلك يكون المعنى أنّ الرّمْحَ الخَطّيّ أو لُغَةَ السّلاح قد وضع حَدّاً لشقشقة « توفلس » وتركته في وضع تَرْجُف فيه أحشاؤه خوفاً وتحسباً وحزناً . إنّ الحديث عن الأسد وأسود الغِيلْ في البيت السابق قد استدعى نظرة أو قل لقطة تصويرية لمنظر الخائف في الجانب الآخر . وهو ما سبق التنويه به كعب بن زهير في رائعته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

من ضيغم من ضراء الأسد مخدرهِ ببطـــنِ عَثّر غيل دونه غيل

إلى أن يقول :

منه تَظَلّ حميرُ الوحْشِ ضامِرةً ولا تمشي بواديهِ الأراجيل [1]

فهو قد تحدث عن الأسد في الغيل ثم هو يتحدث عن الطرف المقابل الذي يشبه حمير الوحش من حيث ضمورها والتقاط أنفاسها حتى لا يشعر بها الأسد في الوقت الذي فيه فرائصها ترتعد خوفاً . وبذلك يكون أبو تمام قد أقام الموازنة ذاتها مع استبدال للوحوش الضامرة بـ (توفلس) وسكوت

---

(١) محمد علي أبو حمدة : في التذوق الجمالي لقصيدة بانت سعاد لكعب ابن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم (مكتبــة الاقصى ، عمان : ١٩٨١م) ط ١ ص ص ٤٠ ــ ٤١ .

منطقه وكلامه . وهذا التفسير وفق هذه القرينة يراها كاتبُ هذا التذوق غير مسبوق إليه .

٥٦ ـ أحْذَى قَرَابِينَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى
يَحْتَثّ أنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الهَرَبِ

« أحذى » في معنى أعطى ، وهو يتعدَّى إلى مفعولين ، والمعنى : أعطى هذا المنهزمُ صَرْفَ الرَّدى قرابينه . و « القرابين » جُلَساء الملك ، واحِدُهم قُرْبان . وقوله : « أنجى مَطَايَاهُ من الهرب » يريد أن الهربَ أنجى مطاياه ، وهذا كما يقال : لقد أخذتُ أكرم صاحِبٍ من فلان ، أي هو الكريم المفضل على غيره . وبعضهم يروي : « إلى الهرب » والرواية الأولى أجود ، ومن روى : « أزجى مطاياه » فقد صَحَّف . (التبريزي) .

وبذلك يكون أحذى يتعدى إلى مفعولين ويكون « صرف الردى » مفعولاً أولاً ، و « قرابينه » مفعولاً ثانياً . أي أنَّ « توفلس » قد ضحّى بحاشيته طُعمة للموت ومضى هارباً على أكثر دوابِّه سرعة لينجو بحياته هرباً من قبضة الجيش المسلم .

٥٧ ـ مُوكَّلاً بِيَفَاعِ الأرْضِ يُشْرِفُهُ
مِنْ خِفَّةِ الخَوْفِ لا مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ

ويروى : « يَشْرُفه » أي يعلوه ، و « يُشْرفه » أي يُشْرِف عليه ،

وهذا الفعل يُستَعمل تارة بحرف الخفض وتارة بغيره . وجعل « الطَّربَ »
هنا الخفّة من الفرح خاصَّةً لمّا كَثُر استعمالُهم إيّاه في ذلك ، وإن كان
يُستعمل في الحُزْنِ والشوق المبرِّح . والمعنى : أنَّ هذا الرَّجُل يعلو ما ارتفعَ
من الأرض لينظر إلى الطرق هل فيها مَنْ يتبعه . (التبريزي) .

والمعنى – كما يراه كاتب هذا التذوق – أنَّ الجيش المسلم وجد
الطّريق إلى حِصارِ عمورية عبر الأودية والأماكن المنخفضة ومن ثَمَّ
فالطريق عبر هذه المسالك كانت تحت هيمنة الجيش المسلم . ولذلك . فإن
« تُوفلِس » كان كأنّه قد أوكل إليه مُهمّة تتبع الأماكن العالية ودراسةَ
خطوط التقائها وافتراقها بحثاً عن طريق للهرب والنجاة في خِفّة ورشاقة
سببها الخوف لا الإنشاء والطّرَب .

٥٨ – إنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّها عَدْوَ الظّلِيمِ فَقَدْ
أوْسَعْتَ جَـــاحِمَهَا مِنْ كَثْرةِ الحَطَبِ

« الظَّلِيم » ذكرُ النّعام ، وهم يصفونه بالنّفارِ والسّرعة ، و « الجحمةُ »
معظمُ النار ، ومنه الجحيم . وهذا مثلٌ ضربه لشدّة الحرب واضطرامها ،
و « الجاحمُ » الذي يُسَعّرها . يقول : خَلّفْتَ بها جَيْشَك يقتلون مَنْ
فيها ، فجعلهم حَطَباً لنيران الحرب . (التبريزي) .

لئن نَجَا « تُوفلِس » من نيران عمورية سُرْعَتَهُ في الهرب سرعةَ

ذكرِ النّعام فقد فَقَدَ جيشَه وقوداً للنّار المُستعمرة في البلدة . « يَعُدْ » فعل الشرط و « فقد » جواب الشرط .

٥٩ – تِسعُونَ ألفاً كآسادِ الشّرى نَضِجَتْ
أعمَارُهُمْ قَبْلَ نُضُجِ التّيْنِ والعِنَبِ

هذا البيت قد تكلم فيه النّاس ، وذكره الصولي رادّاً على مَنْ طَعَنَ فيه فقال : إنْ كان هذا لأنّ التين والعنبَ ليس مما يذكر في الشعر وأنه مستهجن فقد قال عبدُ الله بن قيس الرُّقيّات :

سَقْياً لحُلوانَ ذي الكروم وما صُنِّفَ من تينهِ ومن عنبِه

وذكر أبياتاً غيرَها ، وقد عابه عليه مَنْ لم يدْرِ قصدَه . وكانوا يقولون : إنما يَفْتَح مدينتَنا أولادُ الزّنا ، فإن أقام هؤلاء إلى زمان التين والعنب لم يفلت منهم أحد ، فبلغ المعتصمَ قولُهم فقال : أرجو أن يكفيني اللهُ أمرَهم قبل نضج التّين والعنَب ، فأمّا روايتهم أنّه لا يفتح مدينتهم إلاّ أولادُ الزّنا فما أريدُ أكثرَ مِمّن معي منهم ، يعني الأتراك الذين كانوا في جيْشه . وقد بيّن هذا في قوله « السّيفُ أصدَقُ أنباءً من الكُتُبِ » . ويقال انّ بَعْضَ مَنْ كان بعمورية من الرُّهبان قال : إنّا نجد في كتبنا أنّه لا يفتح هذه البلدة إلاّ مَلِكٌ يَغْرِسُ في ظاهرها شجرَ التين والكَرْم ويقيم حتّى يُثمرا ، فأمرَ المعتصمُ بأن يُغترس التين والكرمُ ، فكان الفتحُ قبل ذلك ، فاستعارَ النّضجَ للأعمار لمّا قابله بنضج التين والعنب . (التبريزي) .

وكاتب هذا التذوق لا يرى دفاع الصولي عن أبي تمام من هذا الوجه بشيء لأن ذكر التين والعنب مع الأجسام المقروحة والجلود المنضجة أمر ليس في صالح التين والعنب وبخاصة حين نستذكر الدلالة الهامشية للفظة « نَضِجَت » التي هي قرآنية صحيحة . قال تعالى : [كلّما نَضِجت جلودُهم بدلناهم جلوداً غيرَها ليذوقوا العذاب] النساء : ٥٦ .

ولا يُعفي أبا تمام من اللوم أن يكون عبد الله بن قَيْس الرُّقيّات قد ذكر التين والعنب في بيت من أبياته . إنّ النصّ الشعري نسيج وحده وهو متفرد في وحدة الخلق الفني إن جاز التعبير فيحْكَمُ له أو عليه دون شدّه إلى مقاييس تقريرية .

والذي نرى أن الشاعر قد أجاده في البيت هو تلك السخرية من مقولتهم حول نضج التين والعنب . فإن هم أرادوا الانتظار حتى وقت نضج التين والعنب ؛ فإنّ أعمار تسعين ألفاً من صناديدهم الذين يشبهون أُسودَ الجبال كانت قد أنضجتها نيرانُ الجحيم المستعر في عمورية . وليس هذا بالضرورة مقابلةً بقَدرِ ما هو التعيير والتهكم . والمعنى : أنتم تتحدثون عن نضج التين والعنب وهؤلاء أعمارهم قد أصبحت طبيخاً .

٦٠ — يَا رُبَّ حَوْبَاءُ لمّا اجْتُثَّ دَابِرُهُمْ
طَابَتْ وَلَوْ ضُمِّخَتْ بِالمِسْكِ لم تَطِبِ

« الحَوْباء » النفس . و « اجتُثّ دابرهم » أي قُطِعَ أصلُهُم، وقيل : استؤصِل آخِرُهم ، والمعنيان متقاربان . و « التضميخ » الاطّلاء بالطيب .

و « طابَت » من الطّيب الذي هو سُرورُ النفس ، لا من الطّيب الذي هو أرَجُ الرّائحة ، وكذلك قوله « لم تطبِ » في آخر البيت ، لأنّ النفسَ المهمومةَ وإن تضَمّخَتْ بالطّيبِ ففاحَتْ ريّاه غيرُ طَيّبَةٍ لما تجِدُ من الهمّ ، وهذا من قوله طاب نَفْساً بكذا . (التبريزي) .

والمعنى الذي يقصده الشّاعِر – كما يراه كاتبُ هذا التذوق – هو أنّ هنالك بَعْضَ أنفس – وإن قَلّت كما جاء ذلك بالإفراد في قوله « حوْباء » لَعَلّها قد سَكَنَتْ شكواها وتذمّرُها لما رأت البيزنطيين في عمورية قد استؤصِل آخِرُهم . وهذه الأنْفُس لو كانت طُليت بالمسك ما كانت لتصبح طَيّبَةً نقية طاهرة . أو بكلام آخر : لقد دَرَى بعضُ الذين كانت تحدّثهم نفوسُهم بالعصيان والتمرّد من قادة الأتراك أيَّ مركبٍ صَعْبٍ كان ينتظرهم لو أنهم لَجّوا في شقّ عصا الطّاعة عن الخلافة الإسلامية . لقد كان واقع عمورية درْساً لهم لتَقَرّ نفوسهم عن التطلع إلى دنيا العِصيان . يُعَزّز هذا التفسيرَ الذي أطال الشاعر في رسم مقاماته حين كان يشير إلى أنّ بعض أفراد النّاس في معسكر الخلافة قد داخَلَه بعضُ شك في صِدق مقولات المنجمين والحرب النفسية – قولهُ (أي الشاعر) « يا رُبَّ » . وهذه إشارة إلى « طابورية خامسة » لم تُفصح عن نفسها صراحة ولكن يبدو أنّ هواجس الخلافة منهم

كانت قد كَثُرت . يصدّق ذلك ثورة بابك الخُرميّ والأفشين ومازيار من قادة الأتراك وأعوانهم [1] . ويعزّز ذلك أيضاً سياق البيت الذي يلي :

٦١ – وَمُغْضَبٍ رَجَعَتْ بِيضُ السُّيُوفِ بِهِ
حَيَّ الـرِّضَا مِنْ رِدَاهُمْ مَيِّتَ الغَضَبِ

أي وَرُبَّ مُغْضَبٍ على الكُفْرِ رَدَّه الظَّفَر بهم هكذا . وفي البيت طباقان : الحيّ والمَيّت ، والرّضا والغضب . (التبريزي) . وذكر الخارزنجي وجهين لمعنى البيت : أحدهما موافق لشرح التبريزي ، والآخر هو : يقول ورُبّ ملك عظيم منهم كان مغضباً مغتاظاً على المسلمين فأوقعت السيوف به فأحيت رضاه من إهلاكها إيّاه ، وأماتت غضبه [2] .

وعطفاً على ما تقدم ، فإنّ الشاعر يتحدث عن هذا القطاع من النّاس بضمير « رُبَّ » . ولا يمكن أن يكون الشاعر قد عنى « تُوفِلَس » أو عنى الخليفةَ المعتصم حين استخدم صيغة « رُبَّ » التي هي إلى التعمية والشك أقرب منها إلى الوضوح واليقين . ولا يمكن أن يكون الذي رجعت بِيضُ السّيوف به حَيّ الرضا من رداهم بيزنطياً ، ولا يمكن أن يكونَ الخليفةَ المعتصمَ لأنه لا يُتصوّر أن يصفه الشاعرِ بـ « ميّت الغضب » ولو كان غَضَبُه قد

---

(١) انظر : تفصيلات مؤامرة قادة الاتراك ضد المعتصم وقائده اشناس ومحاولتهم نقل البيعة الى العباس بن المأمون ، وذلك اثناء حصار عمورية في : تاريخ الرسل والملوك ص ٦٦ .
(٢) شرح التبريزي . الحاشية . ملاحظة رقم ٢ ص ٧٠ .

مات ؛ لأنَّ ذِكْرَ الموت في الحديث عن الخلافة مما يُتَطَيَّرُ منه ؛ وما كان لشاعر واعٍ حصيفٍ كأبي تمام ليقع هذا الموقع . فهل غيرُ بَعْضِ القادة الأتراك الذين كانوا يُسِرّون سِرَّ الكفر بين ضلوعهم والذين وجههم المعتصم لحرب البيزنطيين هم الذين رجعت بيْضُ السّيوف بهم « حَيَّ الرِّضا من رداهم (ردى البيزنطيين) مَيّتَ الغَضَبِ (بما نالوه من الجوائز والمكافآت)؟ هذا وقد تحدَّث الشاعر نفسُه عن خروج هؤلاء عن أوامر الخلافة وعصيانهم المسلح الذي كلفهم حياتهم في مثل قوله عن الأفشين وهو حيدر بن كاوس :

مَوْتُورَةٌ طَلَبَ الإلهُ بثأرِهـا وكفى بربِّ الثّأرِ مُـدْرِكَ ثارِ
صادى أمـيرَ المؤمنينَ بِزِبْرجٍ في طَيّهِ حِمَةُ الشُّجاعِ الضاري
حتى إذا مـا الله شَقَّ ضميرَهُ عن مُستَكِفِّ الكُفْرِ والإصرارِ
ما كان لولا فُحْشُ غدْرَةِ خَيْذَرٍ ليكونَ في الإسلامِ عامُ فِجارِ
ما زالَ سِرُّ الكُفْرِ بين ضلوعهِ حتّى اصطلى سِرّ الزناد الواري(١)

وقوله :

ولقد شفى الأحشاء من بُرَحائها أنْ صارَ بابَكُ جار مازَيّارِ (٢)

---

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ج ٢ ص ص ١٩٨ — ٢٠٣ . ويعلق التبريزي بقوله : لولا نقض الأفشين ما كان بينه وبين المعتصم من العهود والمواثيق ، وبغيه الذي أورده موارد الهلَك ، لم يكن في الاسلام عام فِجار كما كان في الجاهلية . ص ٢٠٣ .
(٢) ذاته : ص ٢٠٧ . صادي : داري . الزبرج : غيم فيه ألوان مختلفة ولا ماء فيه . والشجاع ضرب من الحيات .

وهذا التفسير للبيتين يراه كاتبُ هذا التذوق غير مسبوق إليهما .

٦٢ — والحَرْبُ قائِمَةٌ في مَـــأزِقٍ لَجِجٍ
تَجْثُو القِيَـــامُ بِهِ صُغْراً على الرُّكَبِ

« المأزِق » أصلُه من الأزْقِ وهو الضيق ، ومأزِق مَفْعِل من ذلك . و « لجج » من قولهم لجج في الشيء إذا نَشَبَ فيه فلم يَخْلُص ، وقد يُقال مكانٌ لَجِجٌ أي ضيّق . ويروى « تجثو الكُماة به » في مكان « القيامُ » . و « الكُماة » جمع كَميٍّ ، وهو الذي قد كَمَى نَفْسَه بالسّلاح ، وكأنّه جَمْعُ كَامٍ ، مثلما يقال قاضٍ وقُضاه ، ولكنهم يُعَبّرون عنه بأنه جمع كميٍّ ، لاشتراك فاعل وفعيل ، في الواحد ، كما يقولون عُلماء جمع عالم ، وحقيقتُه أنه جمعُ عليم مثل كبير وَكُبَرَاء . والمعنى : أنّ القومَ يجثون على الرُّكب لثِقَل ما حَمَلُوه من أمْرِ الحرب ، وهذا كما قال الثقفي :

إنْ حَمَلُوا لم نَرِمْ مَوْاقِفِنَــا وإنْ حَمَلْنا جَثَوْا على الرُّكَبِ

(التبريزي) .

ويرى كاتب هذا التذوق أنّ الشّاعر هنا قد انتقل إلى وصف تدافع الجيش البيزنطي أمام التكتيك العسكري الإسلامي . وهو في هذا البيت يصف أرض المعركة وسيرها على الطبيعة وفي الواقع يقول : بأن الحرب قامت في

مكان ضيق [1] وهو حتماً ثغرة أحدثها في الأسوار من جهة الوديان المهاجمون المسلمون ثم أعملوا في البلدة الحرائق . فكان يتحتّم على كبار القادة البيزنطيين الهاربين أن يتخففوا من أسلحتهم الثقيلة ومن خيولهم ومن نياشينهم ورتبهم العسكرية وأن « يَزْمَّوا » أنفسهم كالصّغار جَثّواً على الرُّكَبِ حتى يُتاحَ لهم الهَرَبُ زَحْفاً على بطونهم . ومِنْ ثمَّ فإنَّ قِطاعاً كبيراً من عسكر البيزنطيين قد لقي مَصْرَعَه ضرباً بالقفا برؤوس الرّماح . وهو ما يُفَسّره أجملُ تفسير وأحْسَنَه قولُ الشاعر في البيت الخامس والسّتين :

كم أحرَزَتْ قُضُبُ الهنديّ مُصْلَتَةً تهتَزُّ مِن قُضُبٍ تهتَزُّ في كُثُبِ

« كثب » جمع كثيب من الرَّمل يريد به الأعجاز [2] . ولا يُلتَفَتُ إلى ما قاله الدكتور محمد مصطفى بدوي في هذا الصدد من دلالة لفظة « قُضُب » في العربية بما يتفق وعملية زواج المعتصم بعمورية وأنه استخدم أي المعتصم أي الجِنسَ والعنف في افتضاضها . إن الدكتور بدوي يَفرِض على القصيدة إطاراً منطقياً مُعَيَناً أغراه به الطباق اللفظي والعقلي عند أبي تمام . ومِثْلُ هذا الإطار نراه غير ذي اتّساق على أرض الواقع كما تُحَدِّث به نصوص القصيدة ومعمارُها الفني ونموُّها من داخل . وهذا التفسير للبيتين يراه كاتبُ هذا النقد غير مسبوق إليهما .

---

(١) يذكر الطبري مكان الحصار يقول : « وكان الموضع ضيقا » ص ٦٥ .
(٢) يذهب الخطيب التبريزي الى أن المقصود هو السبايا **ذوات القدود** الممشوقة كأنها القضب تهتز على أعجازهن وقت المشي . (شرح التبريزي ص ٧٢) .

٦٣ – كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرٍ
وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضٍ شَنِبِ

«تحت سناها» أي سَنَا الحرب، وهو ضَوْؤها. «من سَنَا قَمَرٍ» أي من ضوء جارية كالقمر سُبِيَتْ. و «عارضها» أي عارضُ الحرب التي تُمْطِر المنايا. وقوله «من عارِضٍ شنب» يعني عارضَ للأسنان، يقال للنابِ والضّرس الذي يليه عارِض، والشَّنَبُ بَرْدُ الأسنان، ويقال حِدَّةُ أطرافها. (التبريزي).

أي قد نيل تحت سنا عمورية المشتعلة الكثيرُ من سنا الفتيات الأقمار السّبايا ونيل تحت العارض (الغيم المعترض بين السماء والأرض) الدخاني الكثيرُ من تقبيل الفتيات ذوات الأفواه الجميلة المتسقة الأسنان. وواضح أن الحديث عن سنا النار جرّ إلى الحديث عن سنا الحسان، والحديث عن العارض من الدخان جرّ إلى الحديث عن العارض الشّنِبِ.

٦٤ – كَمْ كَانَ فِي قَطْعِ أَسْبَابِ الرِّقَابِ بِهَا
إِلَى المُخَدَّرَةِ العَذْرَاءِ مِنْ سَبَبِ

«الأسباب» الأشياء التي يُتوصّل بها إلى غيرها، ولذلك قيل لكحبل سَبَب، و «أسباب الرّقاب» يعني ما فيها من العُروق، شبّهها بالحبال: و «المُخدّرة» ذات الخِدْر، والأجود هاهنا أن يَعْني بها المرأة، وتكون

شائعةٌ في الجنس ، ولا يمتنع أن يُعْنَى بها عمورية ، لأنه قد شبّهها بالبِكْرِ في أول القصيدة (التبريزي) .

أي أن السّيوفَ وإعمالها في حزّ الرقاب كان في الأسباب التي فتحت الطريق إلى عموريّة .

٦٥ — كَمْ أحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِيّ مُصْلَتَةً
تَهْتَزّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ في كُثُبِ

كما أنّ الرّماح وإعمالها في أدبار المنهزمين قد أحرزت إنجازاتٍ كثيرة على هذا السّبيل . وبذلك يكون التوافق واضحاً في الحديث عن الرّقاب في مقابل الحديث عن الأدبار ، ويكون التوافق واضحاً في ا لحديث عن السيوف في مقابل الحديث عن الرّماح . وما نظن الشّاعرَ يتحدث عن رقاب القتلى في طرف وعن أعجاز النساء في طرف آخر . إنّ مادة هذا الطباق ليس من مادّة ذاك . وهذا التحليل يراه كاتبُ هذا التذوق غير مسبوق إليه أيضاً .

٦٦ — بِيضٌ إذَا انْتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ
أحَقّ بالبِيْضِ أتْرَاباً مِنَ الحُجُبِ

« انتُضِيتْ » سُلّت ، و « حُجْبِها » أغمادُها ، و « الحُجُبَ » الثاني حِجَالُ النّساء ، و « أتراب » جمع تِرْب ويروى « أبداناً » وهي من صفات نساء الرّوم . وفي البيت : تجنيس وتصدير ، فالتجنيس بيضٌ وبِيض ،

والتصدير رَدُّ العَجُز على الصَّدر ، قال في النصف الأول حُجْبها ثم قفّى بالحُجُب . (التبريزي) .

وكاتب هذا التذوق يرى أن المعنى الذي قَصَدَ إليه الشّاعر في السّباق هو أنَّ السيوف إذا انْتُضِيَت من أغمادها فهي أحَقّ بالبِيْض (جمع بَيْضَة وهي ما يلبسه المحارب على رأسه من قناع حديدي . يقول الزبيدي صاحب تاج العروس : « البيضة واحدة البيض من الحديد على التشبيه ببيضة النعام »[1] . كي تكون أترابها التي تقاربها وتلاعبها وتنادمها (على سبيل التهكم) وبحكم البياض واللمعان في كليهما على خلاف الحُجُب (الأغماد) التي هي قاتمة . أيَّ أنَّ السّيوف إذا انتضيت فهي موكّلة بـالبِيْضِ والرؤوس والرقاب والدروع . وهذا البيت في انسجام تام مع وصف القتل في البيتين السابقين . وما نَظُنُّ أن الشّاعر قد قَصَد إلى شيء من ذِكرِ النساء وبياضِهن في هذا البيت بعدما كان تحَدَّث عن سنا الأقمار السّبايا في البيت ٦٣ . إنَّ هذا لا يَتَفِقُ بتاتاً ونموَّ الحَدَثِ من داخل وما نَظُنّ الشّاعرَ بالذي يَدورُ حوْلَ نَفْسه في تكرار مُمِلّ ، وتعدّد غيرِ هادف . ثمَّ هل يَظُنُّ أحَدٌ أنَّ الشّاعر يخاطب المعتصم بهذا البيت (٦٧) :

خَليفَةَ اللهِ جازى اللهُ سعْيَكَ عنْ جُرْثومَةِ الدّينِ والإسلامِ والحَسَبِ

---

(١) محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس (دار ليبيا للنشر والتوزيع : بنغازي) مادة : بيض .

يعد حديثه (الشاعر) عن سَوْق النساء البيض من الروميات تحت تهديد السيوف المسلولة من أغمادها ؟ إنَّ هذا حتماً لم يكن . وإنَّ حديثَ الشاعر بهذا الخطاب والتوجه والمناداة إلى أعتاب مقام الخلافة لم يكن إلاّ بعْدَ أنْ نَظَرَ إلى مصارع القوم وليس إلى جموع السّبايا . وأمّا أن تكون السّيوفُ المنتضاة والنساءُ البيض أتراباً بحكم البياض واللمعان فما نرى ذلك باجتماع لا على سبيل التوادد ولا على سبيل التضاد . وليس الإثنان من وادٍ واحد لا في فنّ ولا في معنى وما كان لشاعرٍ مثلِ أبي تمام ليجترح مثل هذه .

٦٧ ــ خَلِيفَةَ اللهِ جَازَى اللهِ سَعْيَكَ عَنْ
جَرْثُومَةِ الـدّينِ وَالإسْلامِ والحَسَـبِ

ويروى « كافا اللهُ سعيَكَ » . وجُرثومة الشيءِ أصْلُه . (التبريزي) .

٦٨ ــ بَصُرْتَ بالـرّاحَةِ الكُبرى فلمْ تَرَها
تُنَـالُ إلاّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ التّعَـبِ

وقد تقدّم شرحنا لهذا البيت ومدلول لفظة « جِسْر » وما كلّفَه الجيشُ المسلمُ من ضحايا ومشقة وطول إمداد وتعزيز الدّفاعات المستمرة والدوريات المتحركة كي يحول دون الإنقضاض على مؤخرة جيشه من أي من الحصون المعادية والتي كانت وراء خطوط الجيش المسلم .

٦٩ ــ إنْ كانَ بَيْنَ صُرُوْفِ الدّهْرِ مِنْ رَحِمٍ
مَوْصُولَـةٍ أوْ ذِمَـامٍ غَيْرَ مُنْقَضِـبِ

٧٠ — فَبَيْنَ أيّامِكَ اللاّتي نُصِرْتَ بِها
وَبَيْنَ أيّامِ بَدْرٍ أقْرَبُ النّسَبِ

أي إنْ كان ثَمّةَ من أسبابٍ (حبال) بين تصريفات الدَّهْرِ وأحداثِه المختلفة ، فإنَّ أيامَ فتح عموريّة وأيّام انتصارات الإسلام في بَدْرٍ لهما أكثرُ الأحداث تشابهاً واتصالاً وقرابة أحوالٍ وقرائن . إنَّ كلتيهما كانتا معارك حاسمة في الانتصار على الشرك والكفر . ثم إنَّ كلتيهما قد نَفَتْ المنافقين والذين في قلوبهم مَرَضٌ من المحسوبين على الجيش المسلم — كما سَبَقَ أن بَيّنّا .

٧١ — أبْقَتْ بني الأصْفَرَ المِمْرَاضِ كاسِمِهِم
صُفْرَ الوُجُوهِ وجَلّتْ أوْجُهَ العَرَبِ

الرّوم يقال لهم بنو الأصْفَر . وقال « المِمراض » لِيَدُلَّ على أنَّ صُفْرَتَهُ كانت مِن مَرَضٍ لا من خِلْقة ، و « المِمْراض » الكثير المرض . وقال « كاسمهم » وهو يريد اسم أبيهم على المجاز ، لأنهم إذا ذكروا قيل بنو الأصفر فعُرفوا بذلك فصار كالاسم لهم . (التبريزي) .

* * *

ويتبيّنُ من خلال هذا « المستوى النقدي » الذي قد قدّمناه للقصيدة أنّ جميع صوره وتحليلاته وموازناته وأقيسته وأخيلته (الشاعر) قد كانت

عربيّة إسلامية خالصة لا مكانَ لغير الثقافة الإسلامية فيها إطلاقاً البتّة [1] .

ومن هاهنا ، فإنَّ كاتبَ هذا التذوق ينفي بشدَّة كُلَّ تلك المبالغات عن « حجم » تأثير الثقافات اليونانية والفارسية والهندية على شعر أبي تمام وَصُوَرِه وأخيلَتِه — كمثل ما أفاض الحديث عنه الدكتور طه حسين في معظم كتبه ، وكَمِثلَ ما صَوَّره الدكتور شوقي ضيف في كتابه « الفن وتطوره في الشعر العربي » . وليس مِثْلُ النّصوص بقادر على أن يُقَدّم الدليـــل تلو الدليـــل على صِحّة الأقوال ، وقُوَّةِ النتائج في التثبت والاستحكام . ومن هاهنا ، فإنَّ كاتب هذا التذوق ليدعو إلى اطّراح مُرَكّب النقص عند الحديث عن الظواهر الأدبية والفكرية التي نبتت في الحياة العربية والإسلامية نباتاً داخلياً ، وكانت المسارَ الطبيعي لمَحصّلة العوامل المتدافعة في الظروف المتميزة . إنَّ الحديثَ عن المنبع العربي الإسلامي هو الحديث الذي ينبغي أن يكون « المِظَلّة » و « المهادَ » في مثل هذه الدراسات . وكلّ حديث يتحدث عن مؤثرات سريانية ويونانية وهندية وفارسية وبيزنطية أن يبدأ من الدليل الواضح ، والبيّنة المؤكّدة ، ينبغي أن يُطّرَح (بضم الياء وتشديد الطاء المضعفة المفتوحة) باعتباره لغواً ، وأولى أنْ يُطّرَح . وما إخال أستاذَنا الدكتور شوقي ضيف إلاّ مُوافقَتي على أنَّ الحديثَ في المؤثرات الأجنبية على كثير من الظواهر الأدبية والفكرية في تراثنا العربي الإسلامي قد كان أكبر من « حجمه » الحقيقي عَدَدَ مَرّات ، وأنّه في معظمه قد كان رَجْماً بالغيب من مكان بعيد — في دراسات المعاصرين وبحوثهم .

---

(1) حتى ذكر كسرى والاسكندر وأبي كرب وتوفلس كانت كلها مستقاة من الثقافة العربية الاسلامية وليس فيها ما يدل على ثقافة مغايرة .

ثبت المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – الآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر : الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري . تحقيق السيد أحمد صقر (دار المعارف بمصر : ١٩٦١ م – ١٩٦٥ م) .

٣ – ابن الأثير ، ضياء الدين : المثل السائر (مطبعة نهضة مصر . القاهرة : ١٩٥٩ م) ج ٤ .

٤ – الإربيلي ، سنباط : خلاصة الذهب المسبوك (بيروت : ١٨٨٥ م) .

٥ – التبريزي ، الخطيب : شرح ديوان أبي تمام . تحقيق : محمد عبده عزّام (دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م) .

٦ – الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز (مكتبة القاهرة ، القاهرة : ١٩٦١ م) .

٧ – الزبيدي ، محمد مرتضى : تاج العروس (دار ليبيا للنشر والتوزيع : بنغازي) .

٨ – الصولي ، أبو بكر : أخبار أبي تمام . تحقيق : خليل محمود عساكر ورفيقيه (المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت) .

٩ — الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف . القاهرة ١٩٦٢) ج ٩ .
١٠ — د . شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي (دار المعارف ، القاهرة : ١٩٦٩ م) .
١١ — محمد علي أبو حمدة : أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة (دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت : ١٩٦٩ م) .
١٢ — محمد علي أبو حمدة : في التذوق الجمالي لقصيدة بانت سُعاد لكعب بن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم (مكتبة الأقصى ، عمان : ١٩٨١ م) .
١٣ — تفسير الجلالين (مطبوعات دار مروان — دار العربية : بيروت).
١٤ — Journal of Arabic Literature
١٥ — Three Jacobian Tragedies

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ــ أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة بين الطائيين . دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .

٢ ــ النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري . دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .

٣ ــ الأمثال العامية الفلسطينية . ط ٢ . مكتبة المحتسب ــ عمان .

٤ ــ الفكر الإسلامي وطرائق النقد الأدبي . ط ٢ . دار الفرقان للنشر والتوزيع ــ عمان .

٥ ــ في ظلال الفكر الإسلامي ــ عمان . (نفد) .

٦ ــ نحو رؤية إسلامية ــ عمان . (نفد) .

٧ ــ الطريق إلى الجامعة ــ عمان . (نفد) .

٨ ــ في النقد الأدبي التطبيقي ــ عمان . (نفد) .

٩ ــ ضفائر من تراثنا الشعبي ــ مطبعة شوقي ومكتبتها ــ عمان .

١٠ ــ من أساليب البيان في القرآن الكريم . ط ٢ . مكتبة الرسالة الحديثة ــ عمان

١١ ــ فن الكتابة والتعبير . مكتبة الأقصى ــ عمان .

١٢ – في التذوق الجمالي لـِ « بانت سعاد » لكعب بن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم . ط ٢ . مكتبة الأقصى – عمان .

١٣ – في التذوق الجمالي للامية العرب للشنفرى – مكتبة الأقصى – عمان .

١٤ – في التذوق الجمالي للآية القرآنية الكريمة : (إنما مثل الحياة كماء أنزلناه من السماء . . . الآية) مكتبة الأقصى – عمان .

١٥ – المسجد الأقصى المبارك وما يتهدده من حفريات اليهود . مكتبة الرسالة الحديثة – عمان .

١٦ – الداني في مهارات اللغة العربية . مكتبة الرسالة الحديثة – عمان .

١٧ – مباحث في الهجمة اليهودية على مدينة القدس . مكتبة الرسالة الحديثة – عمان .

١٨ – في التذوق الجمالي الآيات العشر الأولى من سورة الإسراء . دار الفرقان للنشر والتوزيع – عمان .

١٩ – الأخطبوط الصهيوني رأي العين – مكتبة الرسالة الحديثة – عمان .

٢٠ – في التذوق الجمالي لخطبة زياد ابن أبيه « الخطبة البتراء » . مكتبة الأقصى – عمان .

٢١ – في التذوق الجمالي لقصيدة أبي تمام الطائي في فتح عمّورية (دراسة نقدية إبداعية) . مكتبة المحتسب – عمان .



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com